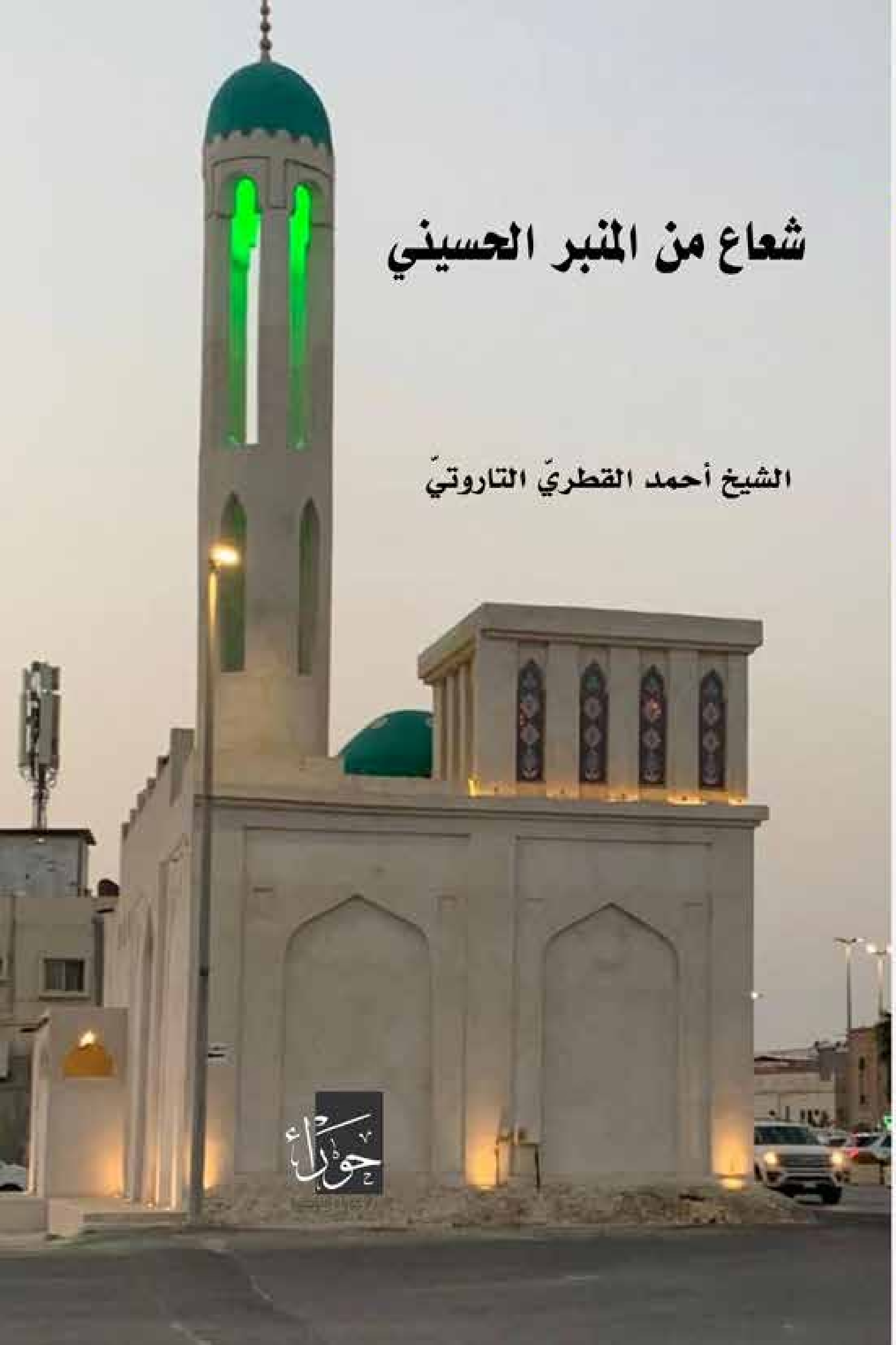
شعاع من المنبر الحسيني

الشيخ أحمد القطريّ التاروتيّ



الإخراج الطباعي:

علي البحراني

+9660503475239

الطبعة الأولى

١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥م

شعاع من المنبر الحسينيّ

محاضرات قيّمة للخطيب الحسينيّ

سماحة الشيخ أحمد القطريّ القطيفيّ التاروتيّ

دار حوراء الثقافية


بسم الله الرحمن الرحیم

الإهداء

إلى بقيّة الله الأعظم الإمام المهدي المنتظر عجّل الله تعالى فرجه الشريف..

الـذي سيملأ الأرض قسطا وعـدلا كما ملئت ظلما وجورا..

أهدي هذا الجهد المتواضع..

عسى أن يحنو عليّ بالتفاتته الكريمة المباركة..

ويجعلني من خدمته وأنصاره وأعوانه..

محبّك ومواليك

أحمد القطري القطيفي التاروتي

شكر وعرفان بالجميل

إلى والدي المرحوم الحاج محمّد علي القطري..

ووالدتي الحاجّة خديجة منصور القطري..

وأخي المرحوم الحاج سعد القطري..

وزوجتي السيّدة شريفة آل درويش..

جزاكم الله خير الجزاء على كلّ ما قدّمتموه لي، وأعانني على ردّ الجميل.

تقريظ بقلم العلاّمة الشيخ داوود مالكاني العامليّ

بملامحه النديّة البهيّة، المسكونة بتاريخ مدينته العريق (جزيرة تاروت) الموغلة في ثنايا الحضارة القديمة مع الفينيقيين ذوي النسيج العرقيّ الواحد لشعوب بلاد الشام، لا سيّما لبنان؛ يُطلّ عليك الخطيب الحسينيّ سماحة العلاّمة الشيخ أحمد القطريّ القطيفيّ، وابتسامتُه تصافحُ - قَبْلَ يدِه - إخوانَه المؤمنين الذين يأتمّون به في صلاة الجماعة، ويستمعون إلى مواعظه في مجالس أبي عبدالله الحسين عليه السلام، ويشاركونه نشاطاته الواسعة في مختلف الحقول والميادين؛ حتّى غدا بين أهله ومحبّيه قدوة صالحةً، وكهفا حصينا لشؤونهم الدينيّة والاجتماعيّة والنفسيّة.

وقد شاء الله تعالى بحكمته الوارفة الظلال أن يجمعني به في مدينة «مشهد» المقدّسة تحت نظر سلطانها الأعظم الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام، وأن تنشأ بعد هذا اللقاء النظيف

علاقة أخويّة كريمة امتدّت مع الوقت الطويل والتواصل المستمرّ لتكون بثبات الراسخات صلابة وقوّة، حسبنا فيها ما ذكرته روايات مستفيضة عن أهل بيت العترة عليهم السلام في حقوق الإخوان وحفظهم والحثّ على تعظيمهم وتوقيرهم، منها ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «عظّموا أصحابكم ووقّروهم ولا يتجهّم بعضكم بعضا ولا تضارّوا ولا تحاسدوا..الحديث» وعنه عليه السلام: «المسلم أخو المسلم، هو عينه ومرآته ودليله لا يخونه ولا يخدعه ولا يظلمه ولا يكذبه ولا يغتابه.» فصرت عارفا بحاله مطمئنّا إليه واثقا بدينه أنيسا بدنياه، ولا ينبئك مثل خبير.

وبمعرفتي لهذا العالم الجليل بدت لي هويّته الدينيّة والإنسانيّة والفكريّة بوضوح شديد: من ولادته في الخامس من شهر محرّم الحرام للعام الهجريّ ١٣٩٥ الموافق في السنة الميلاديّة لعام ١٩٧٥ ليكون هذا التوقيت - ربّما - باكورة انطلاق غيبيّة له في إحياء هذا الشهر المقدّس بمجالسه الحسينيّة الشجيّة، تَرافَقَ مع أسرته ذات الباع الطويل في خدمة أبي عبدالله الحسين عليه السلام. فكان أوّل ما طرق سمعَه صوتُ جدّه لوالدته الخطيب الحسينيّ الملّا منصور القطري في المأتم الأسبوعي المستمرّ منذ خمسة وسبعين عاما في منزل والده المرحوم الحاج محـمّد علي القطري القطيفي التاروتي. وهكذا

نشأ شيخنا في هذه الأسرة المتديّنة مقتبسا من آثارها الروحيّة لا سيّما تلمذته عند جدّته المرحومة الحاجّة زهراء علي آل حمّاد معلّمة القرآن المشهورة، يدرس على يديها أصول القراءة وضبط الآيات الكريمة، يواكبه أخوه الأكبر المرحوم الحاج سعد من جهة أخرى في توجيهه وتدريبه على الخطابة الحسينيّة وتجهيزه بالكتب ومتعلّقاتها، حتّى تأتّى له أن يحجز باكرا كرسيّ خطابته إلى جانب خطباء بلده.

وفي خطٍّ متوازٍ مع الخطابة الحسينيّة، شقّ الشيخ طريقه في تحصيل علوم أهل البيت عليهم السلام بهمّة عالية ونباهة ملحوظة، ظهرَتْ رشحاتُها بما لفتني من امتيازه بقدرة جليّة على الإحاطة بالمطالب الحوزوية الرفيعة وحُسْنِ إظهارها ببيان جميل لافت، بل والاستفادة منها في إثبات وجهة نظره حتّى غدت مادّة فكريّة بارزة في محاضراته يُحسن فيها عرض المصطلحات وشرحها وإزالة حواجزها الثقيلة عن عامّة الناس بعبارة سهلة مفهومة يتلقّفها المستمع بامتنان.

وباطّلاعي الحسّيّ على حاله إنْ من جهة التواصل الخاص أو الاستماع إلى محاضراته أو قراءة نصوصه أو مناقشته، بدت لي فضيلته العلميّة واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار،

تُتَوِّجُهُ عالما عاملا ينتفع بعلمه طلاب العلم ممّن درسوا على يده أو استمعوا إلى محاضراته.

إلى ما يتمتّع به من ثقافة واسعة في علوم متعدّدة من التاريخ والطب والتراجم وسوى ذلك مما يضعه بجدارة في طلائع المثقفين، وما لمسته من تواضعه وخدمته لعموم المؤمنين وأخلاقه العالية وتأسّيه بمخدومه الإمام الشهيد أبي عبدالله الحسين عليه السلام.

وعن محاضراته التي بين يدينا في هذا الكتيّب الأنيق، فإنّها جاءت بعد تصفّحي له بأسلوب السهل الممتنع، وامتازت برشاقة قلمه وحسن سبكه وجميل بيانه، تحيط بالمطلب وتقف عند أهمّ أفكاره، وتقدّم للقارئ مادّة غنيّة بنكات علميّة أو معلومات طبيّة أو تجارب اجتماعيّة، تغني المحاضرات وتحفّز الباحث الرصين على طرق أبواب المعرفة ضمن منهج المؤلّف.

إنّني إذ أبارك لسماحة الشيخ أحمد هذا الجهد النبيل في خدمة أهله وأبنائه من شيعة أهل البيت عليهم السلام، ألتمس منه بدالّة الأخوّة أن يتابع عمله في نشر سلسلة محاضراته تحت عناوين أخرى كعلم العقيدة مثلا لأمسّ الحاجة إليه اليوم بأسلوب يستحسنه طلاب الهداية ويتذوّقه أهل العلم، يرفد به المكتبة

الإسلاميّة ويضيف إليها مادّة فكريّة جديدة. وفّقه الله تعالى لكلّ خير وأناله شفاعة النبيّ وآله الطاهرين وختم له ولي بحسن العاقبة.

الراجي عفو ربّه
داوود عبدالله مالكاني
لبنان – جبل عامل –
١٣ رجب ١٤٤٦ هـــ
يوافقه ١٣ كانون الثاني ٢٠٢٥م

تشريعات اللّه عزّ وجلّ

قال الله الحكيم في كتابه الكريم: ﴿يا أَيُّها الَّذين آمنُوا كُتِبَ عليكُم الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ على الَّذين مِنْ قَبلِكُم لَعَلَّكُم تَتَقُّوُن﴾.[1]

مرّ معنا في جملة من المحاضرات العقائديّة بموجب ما يستدلّ به العقل أنّ الله، عزّ وجلّ، حكيم. والحكيم أفعاله معلّلة، ولها حِكَمٌ سواء كان ذلك في الجانب التكوينيّ أو في الجانب التشريعيّ.

في الجانب التشريعي: جعل الله سبحانه وتعالى الأحكام الشرعيّة - كما تذهب إلى ذلك مدرسة أهل البيت عليهم السلام - تابعة للمِلاكات. والمراد منها أنّ وراء الحكم الشرعيّ الذي يفيد الوجوب أو الاستحباب مصلحة. غيرَ أنّ مصلحته في الواجب أشدّ، وفي المستحبّ أقلّ؛ وأنّ وراء الحكم الشرعي الذي

---

(١) البقرة: ١٨٣.

يفيد الحرمة أو الكراهة مفسدة، ومفسدته في المحرّم أشدّ من مفسدة المكروه. وعليه، فإنّ الأحكام الشرعيّة تابعة للمفاسد والمصالح. وبذلك لا تكون تشريعات الله تعالى عبثية. ولذا، إذا فوّت الإنسان عبادة كالصلاة، كأنْ لم يصلّها في وقتها، أو لم يؤدّ حقّا واجبا عليه، فإنّه يكون قد فوّت المصلحة على نفسه.

ولا شكّ أنّ للأحكام الشرعية حِكماً وعِللاً. ومن غير المقدور للعقل البشريّ أن يستنتج عِلل الأحكام وحِكَمَها تفصيلا، مع وجود الفارق بين الحِكَم والعلل. فالحكمة تتناول جانبا من فلسفة التشريع؛ أما العلّة فإنّه يلزم من وجودها وجود الحكم ومن نفيها نفيُه. ومثال ذلك، ما ورد في حرمة الخمر أنّها معلّلة بالإسكار، فإذا سمعنا بشيء لا يطلق عليه خمر، ولكنّه مسكر فإنّه يكون حراما حينئذ لوجود العلّة (وهي الإسكار) التي ينتج عنها الحكم (وهو الحرمة)، ولو كانت علّة الإسكار مسلوبة عن شيء، فإن الحكم بالحرمة يكون مسلوبا أيضا ما لم يدلّ دليل آخر على الحرمة.

وفي قوله تعالى المتصدّر أوّل البحث: ﴿يا أَيُّها الَّذين آمنُوا كُتِبَ عليكُم الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ على الَّذين مِنْ قَبلِكُم لَعَلَّكُم تَتَقُّون﴾. يظهر هدف الصيام وفلسفته، وهو رجاء حصول الصائم على التقوى. هذه المرحلة التي تقيه غضب الله سبحانه وتعالى،

فيرتقي بنفسه ويبتعد عن الذنوب والمعاصي، وتتأسّس عنده هذه الملكة. هذا ما يعبّر عنه بفلسفة التشريع وحكمته. ومثالُ حكمة أخرى نفهمها من قول الإمام الصادق عليه السلام: «إنّما فرض الله عزّ وجل الصيام ليستوي به الغنيّ والفقير، وذلك أنّ الغنيّ لم يكن ليجد مسّ الجوع فيرحم الفقير، لأنّ الغنيّ كلّما أراد شيئا قدر عليه، فأراد الله عزّ وجل أن يسوّي بين خلقه، وأن يذيق الغنيّ مسّ الجوع والألم ليرقّ على الضعيف فيرحم الجائع»[1].

هذا جانب من جوانب التشريع الإسلامي، ومن حكم وفوائد الصوم الذي يُلاحظ فيه البعد الاجتماعيّ من جهة، وبُعد التقوى من جهة أخرى. والإنسان المتّقي هو المسارع إلى عمل الخيرات كمساعدة الفقراء والمساكين، وقد ورد عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «اتّقوا النار ولو بشقّ تمرة»[2]. فالصدقة، وهي مستحبّة دائما، تُظهر في شهر رمضان جانب رقّة القلب بَعْدَ مواساة الفقراء في جوعهم، وتُساهم في الوصول إلى مرتبة التقوى.

إذن، جعل الشارع المقدس الأحكام الشرعية تابعة للملاكات كما عبّر عنه علم أصول الفقه، وهي الأحكام الاقتضائيّة (الواجب والمحرم والمكروه والمستحب والمباح).

(١) الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج٢، ص٧٣.
(٢) الحرّ العاملي، وسائل الشيعة، ج٩، ص٣٨٠.

والمباح هو الذي ليس به منفعة أو وراءه مضرّة؛ مثلا: لو كان أمامي كأس ماء، شربتُ منه أو لم أشرب فذلك على حدٍّ سواء؛ بعكس صوم شهر رمضان أو أداء صلاة النافلة، فإنّ تركهما يؤدّي إلى خسارة كبيرة.

تبقى الإشارة إلى أنّ ثمّة من خَلَطَ الحِكَمَ بالعِلل، فنظر إلى بعض الأحكام وحاول أن يُسريَ هذا الحكم إلى حكم آخر، كما يُعبّر عنه في علم المنطق بـ«التمثيل»، فينقل حكم جزئيّ إلى جزئيّ آخر، وهذا لا يصحّ، ويعبّر عنه بالقياس الفقهيّ الذي نهت عنه مدرسة أهل البيت عليهم السلام وتبنّته مدرسة أخرى. فقد ورد عن الأئمّة عليهم السلام النهيُ عن استعمال القياس، منه ما رُوي عن الإمام الصادق عليه السلام حينما دخل أبو حنيفة عليه فقال له: «يا أبا حنيفة! بلغني أنّك تقيس؟ قال: نعم، أنا أقيس؛ قال: لا تقس، فإنّ أوّل من قاس إبليس حين قال خلقتني من نار وخلقته من طين»[1].

وفي رواية أبان بن تغلب عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال: «إنّ السنّة لا تقاس، ألا ترى أنّ المرأة تقضي صومها ولا تقضي صلاتها؟ يا أبان، إنّ السنة إذا قيست مُحِق الدين»[2]. وهذا بعينه ما يعبّر عنه بالقياس الباطل. ولذلك فإنّ التشريع الإسلامي

(١) المصدر نفسه، ج٢٧، ص٤٦.
(٢) المازندراني، شرح أصول الكافي، ج٢، ص٢٦٥.

لا يعتمد على القياس، لأنه يورث الظنّ، والظن - بحدّ ذاته - لم تقم عليه الحجّة في الأساس، لولا أنّ الشارع المقدّس أقرّه في موارد خاصّة، وأمرنا بالعمل به، كحجّيّة خبر الثقة المجعولة من قبل المولى تنزيلا له منزلة اليقين عمليًّا، رأفة ورحمة بالعباد، وهو في الأصل يفيد الظنّ؛ والخبر يختلف عن قياس الجزء على الجزء اختلافا ماهَويّا. والأصل في الظنون عدم حجيّتها إلا إذا قام الدليل عليها. ودليلُ عدم حجيّة الظنّ مستفادٌ من غير آية في القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾(1). فالحجّيّة ليست في الظنّ، بل هي في العلم واليقين، ويجب عدم الخلط بين علّة الحكم وفلسفة الحكم؛ حتّى لا يؤدّي ذلك إلى قياس باطل، ينتج عنه حكم باطل!

ويتساءل كثيرون عن علّة الحرمة وعلّة الحلّيّة في مواضع كثيرة، وقد ذكرت الشريعة الغرّاء بعض الجوانب، إنْ من جهة العلّة التامّة أو الناقصة أو من جهة الحكمة. غير أنّه لم يصلنا بيان علل وحكم جميع الأحكام الشرعيّة. ولكنْ يجاب على هذا التساؤل أنّ الأحكام الشرعيّة تعبّديّة، لا يشترط في امتثالها معرفة عِللها وحِكَمها، فنحن نؤمن بالله سبحانه وتعالى وقد أقررْنا له بالعبوديّة، وهو سيّدنا والمنعم علينا، وهو الذي شرّع

---

(1) النجم: ٢٨.

لنا الأحكام، فينبغي أن نطيعه، ونلتزم بأحكامه. وربّما يتساءل آخرون عن سبب كون صلاة الصبح ركعتين وصلاة المغرب ثلاثا، فالجواب أيضا أنّها أمورٌ تعبّديّة، يكفي أن نعلم بتشريعها، وأنّنا مأمورون من قبل الله عز وجل بالالتزام بها، سواء عرفنا العلّة أو الحكمة أو لم نعرف. أمّا الذي لا يؤمن بالدين فإنّ الردّ عليه يختلف عن الذي يؤمن بالدين.

إلى جانب ما قدّمناه من أنّ للأحكام الشرعيّة مِلاكات ومصالح، نشير أيضا إلى أنّها تنقسم إلى أحكام واقعيّة وأحكام ظاهريّة. فمن جملة الفروقات بينهما أنّ الحكم الواقعي هو الذي نعلم أنّه نزل من قبل الله عزّ وجلّ على النبي الخاتم ﷺ، ولم يكن مستنبطا من خلال الأدلّة، ولهذا لا تقليد في ضروريات الدين كالصوم والصلاة. أمّا الحكم الظاهريّ فهو التي يستنبطه الفقيه اعتمادا على الأدلّة التي بحوزته، ولذا قد يختلف فيه فقيه وآخر وقد يتطابق مع الحكم الواقعي وقد يختلف، إلا أنّنا مأمورون بالرجوع إلى من ثبتت لدينا براءةُ الذمّة في تقليده. ومثال الحكم الواقعي الذي لا يجتمع معه احتمال آخر حرمة الزواج بالأمّهات المستفاد من قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾[1] فإنّ الحكم هنا واقعيّ لا يختلف فيه الفقهاء. ومثال

(١) النساء: ٢٣.

الحكم الظاهريّ بطلان الصوم برمس الرأس في الماء على رأي فقيهٍ، لا يوافقه في هذا فقيهٌ آخر.

والنتيجة أنّ الحكم الإلهيّ واحد. الحكم الذي أنزله على النبيّ ﷺ، والنبيّ علّمه للأئمّة سلام الله عليهم، ونحن نؤمن بذلك من خلال إيماننا بالله عز وجلّ، وأن الله لا يحكم عبثاً من دون مصلحه أو مفسدة. والمصلحة تعود على العبد، لأنّ الله غنيّ عن عباده، فلذا ينبغي على المؤمن أن لا يفوّت عليه المصلحة، وأن يجتنب المفسدة. والله عزّ وجلّ يقبل توبة المعتذر، ويمحو خطيئته. ولكنْ بطبيعة الحال لا يصل مستواه ودرجته إلى إنسان لم يرتكب منذ نعومة أظفاره ذنبا أو معصية، ويكون مرتبطا بالملكوت الأعلى؛ مقارنة بمرتكب الذنوب والمعاصي، فإنّ رقيَّ الأوّل يكون أسرع نحو الله سبحانه وتعالى.

إذا أراد الانسان أن يجتاز مواقف يوم القيامة، عليه أن يرتبط بالله وأهل البيت عليهم السلام، وبالأخصّ بسيّد الشهداء الإمام الحسين سلام الله عليه، فقد ورد عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام أنّه قال: «من ذكرنا عنده ففاضت عيناه ولو مثل جناح الذباب

غفر له ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر»[1].

وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنّه قال: «أيّما مؤمن دمعت عيناه لقتل الحسين عليه السلام دمعة حتى تسيل على خدّه بوّأه الله بها غرفا في الجنّة يسكنها أحقابا»[2].

ولمن يشكّك في ذلك نقول: الله سبحانه وتعالى جواد كريم، والإمام الحسين قد أعطى كلّ شيء لله، ألا يعطيه الله ذلك؟ وهو الذي يعطي من لا يقدّم شيئا، كيف، ومن قدّم نفسه وكلّ ما لديه إلى الدين، وأعطى كلّ شيء لله سبحانه وتعالى وفي سبيله!

نسأل الله عز وجلّ أن يجعلنا وإيّاكم تحت ظلّ عفوه ورحمته وأن يجعلنا من أفضل العباد ومن السائرين على نهج محمّد وآله الطيبين الطاهرين.

---

(١) ابن قولويه، كامل الزيارات، ص٢٠٧.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٠٧.

البيان ثمّ العقاب

خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان ولم يتركه سُدى، وجعل عليه حجّتين، كما نطقت بذلك رواية الإمام الكاظم عليه السلام، حيث ورد عنه أنّه قال: «إنّ لله على الناس حجّتين: حجّة ظاهرة وحجّة باطنة، فأمّا الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمّة عليهم السلام، وأمّا الباطنة فالعقول.»[1] لذا فإنّ تكليف الله للعبد مسوقٌ بعد إقامة الحجّة والبيان. وحجّتُه - بلسان الآية القرآنيّة - بالغة، قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةَ﴾[2]. ولضبطِ أمور العبد في عالم الدنيا جعل سبحانه وتعالى له قوانين وأحكاما انقسمت باختلاف الجهة إلى تكليفيّة ووضعيّة.

فالحكم التكليفيّ هو الذي يتعلّق بأفعال المكلّفين

(١) أصول الكافي، ج١، ص١٦.
(٢) الأنعام: ١٤٩.

مباشرة، وينقسم إلى الواجب والمحرّم والمستحبّ والمكروه والمباح. وهذه الخمسة، بعضها إلزاميّ كوجوب الصلاة وحرمة شرب الخمر؛ وبعضها غير إلزاميّ كاستحباب الصدقة، يحصل بفعلها الثواب وبتركِها عدم العقاب؛ وكراهةِ النوم بين الطلوعين، يحصل بتركه الثواب وبفعله تفويت مصلحة دون عقاب، والمباح لا يلاحظ فيه الثواب أو العقاب، فلا رجحان فيه ولا مرجوحيّة.

والحكم الوضعيّ هو الذي يتعلّق بذوات المكلّفين وليس بأفعالهم، كالزوجيّة مثلا، وهو حكم وضعيّ تعلّق بذات الزوج أو الزوجة بالعقد الشرعيّ المستجمع للشروط، وإن تعلّق به حكم تكليفيّ كوجوب النفقة على كالزوج، ووجوب التمكين للزوج من قبل الزوجة. أو كالملكيّة وهو حكم وضعيّ تعلّق بالمالك ببيع أو إرث أو سواهما.

وحجّة الله البالغة كانت بإرسال الأنبياء - وثبوت نبوّتهم بالدليل العقليّ وهو الإتيان بالمعجزة أو بإخبار نبيّ سابق عن النبيّ اللاحقّ كما حُرّر ذلك في علم العقيدة - وبذلك أصبحوا واجبي الطاعة بعد إقامة الحجّة على الناس، وصار العبد مطالبا بامتثال الأحكام الشرعيّة، ومستحقّا للعقاب على المخالفة.

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا﴾[١] وهذه الآية المباركة أيّدت حكم العقل بقبح العقاب دون بيان، كقاعدة اشتهرت بين علماء أصول الفقه سمّيت بالبراءة العقليّة، ودليلها استقلال العقل بقبح عقاب المكلّف ومؤاخذته قبل وصول التكليف إليه ولو بالفحص، تساوقت معها البراءة الشرعيّة المستفادة - مضافا إلى الآية السابقة - من قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾.[٢] وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾.[٣] وهكذا بعث الله عزّ وجلّ الرسل والأنبياء ونصّب الأئمّة عليهم السلام ليبيّنوا ويوضحوا للناس أحكامهم، وليقيموا الحجّة عليهم، وبذلك يكون العبد مكلّفا بالأحكام الإلهية؛ وأمّا ما لم تقم عليه الحجّة فلا يكون في دائرة التكليف والحساب والعقاب.

وفي قبال هذه النظريّة أو القاعدة؛ مسلك حقّ الطاعة، ومفاده أنّ ما يدركه العقل في دائرة التكاليف المشكوكة إنّما هو حقّ الطاعة للمولى؛ وهذا خلاف مشهور الأصوليين.

وبالعودة إلى العقل، فإنّ الفلاسفة والمتكلّمين قسّموه

(١) الإسراء: ١٥.
(٢) الطلاق: ٧.
(٣) التوبة: ١١٥.

إلى نظريّ وعمليّ، فالعقل النظريّ هو القوّة التي تدرك القضايا الباحثة عن الواقع بما هو واقـع، ولا ترتبط بعمل الفاعل المختار، حيث يكون الإدراك من شأنها وحسب، ورأس مالها البديهيّات والفطريّات كإدراك الكلّ بأنّه أعظم من الجزء، وإدراك أنّ الواحد نصف الاثنين. والعقل العمليّ هو القوّة المدركة للقضايا التي ينبغي أن يقع العمل عليها، كإدراك أنّ الصدق حسن والكذب قبيح. وهكذا، فالعقل يدرك مطلقا قبح العقاب بلا بيان، وحكومةُ العقل تطال أمورا كثيرة نظريّا أو عمليّا. ويُستدلّ على استقلاله بإدراك الحسن والقبيح بمثال جرى بين الدارسين مجرى الماء في الينابيع، أنّه: لو أعطينا مبلغا من المال لشخص غير متديّن، وقلنا له إن صدقت أخذت هذا المبلغ وإن كذبت أخذت المبلغ نفسه فإنّه يختار الصدق. وبهذا فهم بعض العلماء حسن الصدق في ذاته وقبح الكذب في ذاته، على تفصيل في سعة إدراك العقل، يأتي في محلّ بحثه. والشاهد في ذلك أنّ للعقل يداً تطال في الإدراك مسائل كثيرة، فيستدلّ العقل مثلا على وجود الله عزّ وجلّ، وعلى ضرورة بعثة الأنبياء وعلى المعاد، وكذا يدرك العقل بالنظر والعمل أنّ الحساب مع عدم البيان قبيح عقلا، وهو مستحيل على الله تعالى.

ولذا كان الأنبياء والأئمّة عليهم السلام حجج الله على العباد

ووسائط الفيض الإلهيّ، فوجبت بذلك طاعتهم واستحقّ مخالفهم العقاب، ولو لم يرسلهم الله عزّ وجلّ لما كان ثمّة سبيل إلى الحساب، وبمثال تقريبيّ: لو أنّ أحدا يملك في منزله مكتبة، ولا يريد لأحد من أولاده أن يدخلها، فإذا دخلها أحدهم، لا يجوز للأب عقلا أن يلومه ويحاسبه، لعدم إخباره بمنع الدخول إلى المكتبة.

وإلى جانب قاعدة قبح العقاب بلا بيان، قاعدة اللطف الإلهيّ، فالله عزّ وجلّ تلطّف بنا وأرسل لنا أنبياء وأئمةً أناروا لنا دروب الهداية، ومهّدوا لنا سبل الصلاح وجاهدوا في سبيل إعلاء كلمة الله. فقاعدة اللطف من لوازم رحمة الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾.(١) وهي تتكامل مع قاعدة قبح العقاب بلا بيان.

ومن مصاديق رحمة الله ولطفه، أنّه عزّ وجلّ نصّب لنا أئمّة ميامين بيّنوا شرع الله، وأرشدوا الناس إلى الصراط المستقيم. والناظر في سيرهم والمتتبّع لتاريخهم يعرف أهميّة الدور الذي أنيط بهم. فمن يقرأ مثلا سيرة الإمام الحسين عليه السلام يلاحظ دوره الأساس في جهاده لإرساء معالم الهداية، وهو إمام معصوم

---

(١) الأعراف: ١٥٦.

مفترض الطاعة، أقام الحجّة على من كان في عصره. ومن هؤلاء أهل الكوفة؛ فامتحن صدقهم، وبان منهم من التزم وسار على نهجه، وتستّر على ولائه خوفا من جور الظالمين، كمسلم بن عوسجة وحبيب بن مظاهر. فقد أرسل إليهم كتابا مع رسوله مسلم بن عقيل جاء فيه: «...وأنا باعث إليكم أخي وابن عمّي وثقتي من أهل بيتي مسلما بن عقيل...»(١) هذا الرجل الوفيّ الشجاع الذي تربّى في بيت الإمام علي عليه السلام وتزوّج ابنته رقيّة؛ عندما ذهب إلى الكوفة اجتمع عليه الناس، وبايعه ما يقرب من ثمانية عشر ألفا، وقيل أكثر، ولكن عنما أحسّ بنو أميّة بالخطر، أرسل يزيد بن معاوية والياً جديداً على الكوفة، وهو عبيد الله بن زياد، فدخلها متنكّرا بلباس هاشميّ، فحسب الناس أنّه الإمام الحسين عليه السلام، وبدأ بخطّته الشيطانيّة، ورغّب الناس ورهّبهم، فلم يبق مع مسلم إلا القلّة القليلة، وجرى ما جرى من استشهاد رسول الحسين عليه السلام مسلم بن عقيل في الحادثة المعروفة.

ومن هذه السيرة يتّضح انقسام الناس بين من لبّى دعوة المعصوم ولم تلمه في الله لومة لائم وبذل روحه في سبيل الله، وبين من سار وراء الطاغية طمعا في الكسب متجرئا على، سبط رسول الله صلى الله عليه وآله حجّة الله وواجب الطاعة، الإمام

(١) المجلسي، بحار الأنوار، ج٤٤، ص ٣٣٤.

المعصوم عليه السلام. لذلك استحقّ الظالم العقاب والعذاب بعد أن وصلته الحجّة وأنكرها لأنّ العقاب هنا أتى بعد البيان، واستحقّ الشهيد مسلم بن عقيل الثواب ورفيع الدرجات بعد أن أذعن لإمامه ولبّى نداءه.

نسأل الله عزّ وجلّ أن يجعلنا وإيّاكم ممّن يذعنون لنبيّهم صلى الله عليه وآله وأئمّتهم ويتأدّبون بآدابهم، وينالون شفاعتهم يوم الحساب، والحمدلله ربّ العالمين.

الفقه

الفقه له معنيان: لغويّ واصطلاحيّ

الفقه في اللّغة - كما عن غير واحد من أهلها -: الفهم والعلم، فقد جاء في لسان العرب لابن منظور: «الفقه: العلم بالشيء والفهم له».[1] ومنه يُفهم معنى نفيِ الفقه في قول الله تعالى حكايةً عن قوم النبيّ شعيب عليه السلام: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾[2] أي لا نفهم، ويُستقرَبُ من قولِ الإمام الصادق عليه السلام: «ما أعاد الصلاة فقيه قطّ»[3] أنّ المراد بالفقيه هنا، الفاهم والعارف بالأحكام الشرعيّة المتعلّقة بالصلاة، وليس الفقيه بالمعنى الاصطلاحيّ، إذ يكفي في عدم إعادة الصلاة معرفةُ المكلّف بأحكام الشكّ والسهو فيها، فضلا عن أجزائها

(١) ابن منظور، لسان العرب، ج١٣، ص٥٢٢.
(٢) هود: ٩١.
(٣) الطوسي، تهذيب الأحكام، ج٢، ص٣٥١.

وشرائطها ومقدّماتها دون وصوله في الفقاهة إلى مرتبة الإفتاء.

وفي الاصطلاح: «العلم بالأحكام الشرعيّة الفرعيّة، وتحديد وظيفة المكلّف العمليّة عن أدلّتها التفصيليّة المتمثّلة بالقرآن والسنّة والإجماع والعقل.»(١) والتسمية بالفروع جاءت بعد تنقيح الأصول الاعتقاديّة، لأنّ العمل فرع الاعتقاد، ولذلك أُطلق على علم أصول الدين - مقارنةً بفروعه - اسمُ «الفقه الأكبر» لتقدّمه رتبة على العلم بالفروع تَقَدُّمَ الأصل على الفرع.

والفقه بالمعنى الاصطلاحي يُفهم من قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يحذرون﴾(٢) فإنّ إنذارَ القوم لازمُ التفقّه، ولا يمكن تعقّل معناه إلاّ بالتعريف المذكور، لأنّ من شأن المنذِر الإحاطةَ بعلم الفقه، وليس مجرّد تعلّم الأحكام الابتلائيّة؛ وكذا من قوله صلى الله عليه وآله: «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين»(٣) فإنّ إرادة الخير تنسجم مع التبحّر في علم الفقه، لأنّ الخيرّية المذكورة نحوُ مائزٍ يبعد فيه شمولُها لعامّة المكلّفين لما فيه من لزوم تخصيص الأكثر، وإن كان يشملهم خيرٌ آخر بلحاظ

(١) المشكيني، مصطلحات الفقه، ص ٤٠٧.
(٢) التوبة: ١٢٢.
(٣) المجلسي، بحار الأنوار، ج١، ص٢١٦.

امتثالهم للتكاليف الإلهيّة.

وبالمعنى الاصطلاحيّ ينفرد الفقيه بالاجتهاد، وهو بذل الجهد لاستخراج الأحكام الشرعيّة من مداركها ومصادرها المقرّرة، وهي الأربعة المذكورة في التعريف، وهو اجتهاد محمود ومأمور به، وقد استُدِلّ على حجيّته بآية النفر المذكورة، وآية السؤال وهي قوله تعالى: «وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون.»[١] ورواية الإمام الصادق عليه السلام: «إنّما علينا أن نلقيَ إليكم الأصول وعليكم أن تفرّعوا.»[٢] وسوى ذلك من الروايات.

ويقابله اجتهاد آخر مذموم مبنيٌّ على القياس والاستحسان والاجتهاد بالرأي والاتّكال على الظنّ، وهو منهيّ عنه في أكثر من رواية شريفة؛ منها ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «من عمل بالمقاييس فقد هلك وأهلك، ومن أفتى الناس وهو لا يعلم الناسخ من المنسوخ والمحكم من المتشابِه فقد هلك وأهلك.»[٣] وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «من نصب نفسه للقياس لم يزل دهره في التباس، ومن دان الله بالرأي لم يزل دهره في

---

(١) النحل: ٤٣.
(٢) العاملي، وسائل الشيعة، كتاب القضاء، باب ٦، ح٥١ و٥٢.
(٣) الكليني، الكافي، ج١، ص٤٣.

ارتماس.»[1] وسوى ذلك من الروايات.

وقد أجاد العلاّمة المحقّق السيد عبدالحسين شرف الدين (قدّس سرّه) في كتابه القيّم «النصّ والاجتهاد» في بيان الفرق بين الاجتهاد المذموم الذي يكون في قبال النص، وبين الاجتهاد المحمود الذي يكون في دائرة النصّ. ومِثلُ هذا الكلام ذكره الشهيد السعيد السيّد محمد باقر الصدر في كتابه الرائد «المعالم الجديدة في علم الأصول». وقد حرّر (قدّس سرّه) الخلاف بين المدرسة الأصوليّة الداعية للاجتهاد وبين المدرسة الأخباريّة الناهية عنه بأنّ خلافهما لفظيّ، فالاجتهاد الذي يتبرّأ منه الأخباريّون هو الاجتهاد في مقابل النص كالقياس والاستحسان، والاجتهاد الذي يدعو إليه الأصوليّون هو الاجتهاد في دائرة النصّ اعتماداً على المدارك المقرّرة، وبذلك يظهر عدم التعارض بينهما.

---

(١) المصدر نفسه، ج١، ص٥٨.

الإخلاص في العبادة

قال الله الحكيم في كتابه الكريم: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ اللَّه مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.(١)

الإخلاص في العبادة من المسائل المهمّة والضروريّة لانعقاد الامتثال والانقياد لله عزّ وجلّ، وهي تُقابل الرياء الذي يُعتبر أحد مصاديق الشرك المؤدّي إلى حبط العمل وسقوطه عن الاعتبار، قال تعالى: ﴿لِئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.(٢) في رسالة واضحة الدلالة ومباشرة إلى الإنسان حتى لا يشوب عبادته شيءٌ من الرياء، وقد ورد النهي الشديد عنه من النبيّ ﷺ، ففي الحديث: «دبيب الشرك في أمّتي أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء.»(٣)

(١) البيّنة: ٥.
(٢) الزمر: ٦٥.
(٣) المازندراني، شرح اصول الكافي، ج٨، ص٤٩.

وما لهذه الكلمات من دلالة عميقة تظهر المراد من الشرك هنا، وهو الشرك الباطني المتمثّل بالرياء، وليس المقصود هنا الشرك الظاهري عند الذين يعتقدون بتعدّد الآلهة كالنصارى وغيرهم المعبّرِ عنه بالشرك الأكبر. حيث إنّ الرياء يشكّل خطرا واسعا على المرائي، ويخفي في طيّاته عادات قبيحة تمسّ إلى حدّ واضح في سلامة العقيدة. وهنا لا بدّ من بذل الجهد لمحاربة هذا الداء الخطير والتخلّص منه، وعبور طريق الإخلاص لله عزّ وجلّ التي جُعلت شرطا في قبول الأعمال. فالعبادة المتلبسة بثوب الرياء باطلة ومعدومة من الثواب وملحقة بالعقاب.

وفي غير العبادات من بعض الأفعال التي لا تحتاج إلى نيّة القربة لله عزّ وجلّ إلا أنّها في حدّ ذاتها أعمال محمودة، تعكس السجايا الطيّبة في الأصل كنجدة الملهوف وإنقاذ الغريق أو العمل في جمعيّة خيريّة تعنى بمساعدة الفقراء أو ذوي الحالات الخاصّة ينبغي - أيضا - مزاولة هذه الأعمال لمحموديّتها بما يعكس السجيّة الحسنة وصفاء الذات وحسن الطوية. ولا شكّ أنّ كرم الله عزّ وجلّ يشمل هذه النماذج العاملة بإخلاص في خدمة عموم المؤمنين وإن لم يلتفتوا إلى عقد نيّة القربة لله عزّ وجلّ حين الشروع في العمل.

أمّا إذا شاب العمل قصد دنيوي فاسد كإشباع شهوة من حرام أو إيذاء مؤمن أو الحصول على مكاسب منهيٍّ عنها، فإنّ ذلك يؤدّي إلى حبط العمل ويعرّض صاحبه للعقاب الشديد من جبّار السماوات والأرض. فهنيئا للذين يعملون بصمت ويرجون في عملهم وجه الله تعالى، ويتحسّسون شؤون وشجون إخوانهم المؤمنين ويبذلون الوسع في قضاء حوائجهم. وقد استفاضت كتب الحديث في الحثّ على ذلك؛ وتعسًا للذين يسعون من خلال أعمالهم إلى إبراز ذواتهم وتحقيق أرباح دنيوية زائلة وممارسة الكيديّة والمراوغة والثأر للنفس وإبطال الصدقات بالمنّ والأذى، قال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى...»[١]

فالمأمول من عموم المؤمنين أن يلتفتوا إلى هذه الأمور وأن يبتعدوا عن الرياء وحديث النفس بالعُجب والكِبر وسوى ذلك من الآفات والموبقات الخطيرة، وأن يبادروا بإخلاص ينبع من صفاء النفس وطيب الأرومة لفعل الخير ومطلق وجوه البرّ.

يُنقل عن «بهلول» – وهو عالم أخفى شخصيّته الحقيقيّة

(١) البقرة: ٢٦٤.

عن الناس، وتظاهر بالبلاهة لغرض تربويّ كما هو ظاهر ما يُحكى عنه، أو حتى لا يتورّط أو يبتلى بمنصب القضاء كما ذُكر - أنّه مرّ على أناس بنوا لهم مسجدا، ووضعوا عليه لافتة باسم بانيه «المحسن الفلاني»، فذهب بهلول وأزال اللافتة وأبدلها بأخرى وضع عليها اسمه على أنّه من بنى هذا المسجد، ولمّا عرف الباني الحقيقيّ بذلك جمع الناس معترضا على فعل بهلول، فسألهم بهلول: «أنتم بنيتموه لله عز وجل أو للناس؟» إذا كان البناء لله عز وجلّ، فالله سبحانه وتعالى يعلم أنّه له حتى لو اختفت أسماؤكم، وهو الذي لا يخفى عليه شيء، وإن كان عملكم للناس فقد ذهب عملكم و لم تظفروا إلا بالتعب والعناء!

إذن، على الإنسان أن يسعى لكي يكون عمله خالصا لوجه الله عزّ وجلّ ولو كان هذا العمل صغيرا، فالله سبحانه وتعالى ينمّيه ويزيد عليه الأجر والثواب، قال عزّ من قائل: «يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ»[١] فإنّك بمدلول هذه الآية ترى عملك صغيرا ويأتي إليك يوم القيامة كبيرا، وهكذا ترتفع أسهم الإنسان في حسابات السماء وينال المحسن أضعاف ما يستحقّ عطاء وكرما من الله عزّ وجلّ، فضلا عمّا يناله في الدنيا

---

(١) البقرة: ٢٧٦.

من امتيازات منها دفع ميتة السوء ورفع البلاء عنه.

هذا أثر الإخلاص، سطّر أعلى مصاديقه أمير المؤمنين عليه السلام في معركة الخندق حتّى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله: «لضربة علي - يوم الخندق - خير من عبادة الثقلين.»[1] وسبب هذه الرواية إخلاص عليّ عليه السلام لله تعالى وثأره له... عندما أراد أن يحتزّ رأس «عمرو بن عبد ود العامري»، بصق الأخير في وجه أمير المؤمنين عليه السلام، فتركه الأمير ومشى إلى أن ذهب عنه الغضب، ثم عاد إليه وقتله، مبرّرا تراخيه عن قتله بادئ الأمر حتى يذهب عنه غضب نفسه، ويقتله غضبا لله عزّ وجل، فتجرّد عليه السلام عن الشخصانيّة في فعله ونال مقتضى ما ذكرته الرواية من الأجر والثواب. وكذلك في قضية التصدّق المذكورة في القرآن الكريم: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلاَ شُكُوراً * إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً * فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَومِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً﴾[2] نزلت هذه الآيات المباركات في عليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، حتى إنّ بعض المفسرين يرى أنّ الله عزّ وجلّ ذكر الكثير من

---

(١) المجلسي، بحار الأنوار، ج٢، ص٣٩.
(٢) الإنسان: (٧-١١).

نعيم الجنة في سورة الإنسان ولم يذكر الحور العين احتراما وتقديرا للصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء سلام الله عليها.

من هنا ننتهي إلى أهميّة الإخلاص في العمل والاقتداء بأهل البيت عليهم السلام في السلوك والتأدّب بآدابهم والالتزام بتوجيهاتهم التي تعود علينا بالمنفعة في الدنيا والآخرة.

وللعمل الخالص لوجه الله تعالى آثار عظيمة ومجرّبة ذكرها العلماء في مواضع متعدّدة، منها ما ذكر من المجرّبات عن أحد العلماء أنّه إذا كان لديك حاجة متعسّرة وتعلم حال فقير قاطع من أرحامك، فعليك أن تصله من دون علمه؛ فإنّ هذا الفعل من الأسباب التي تسهّل الأمور وتقضي الحوائج، ولا تتذرّع بقطعه الصلة معك، وليكن عملك لله عز وجل: صل من قطعك وأعط من حرمك واعف عمّن ظلمك.

هكذا فعل إمامنا زين العابدين عليه السلام مع ابن عم له كان يؤذيه ويشتمه، والإمام يصله دون أن يعلم، ويطرق الباب عليه وهو متنكّر ويعطيه، وما عرف أنّ الإمام عليه السلام هو من يساعده رغم أذيّته له إلا بعد استشهاده وانقطاع العطاء عنه.

نسأل الله تعالى أن يوفّقنا للإخلاص في نوايانا وأقوالنا وأفعالنا وأن يختم لنا بحسن العاقبة، والحمد لله ربّ العالمين.

الإنسان والعبادة

قال الله الحكيم في كتابه الكريم: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾[1] صدق الله العلي العظيم.

فرض الله سبحانه وتعالى العبادة على الإنسان، لمصلحة تعود عليه بالفائدة. ولا حاجةَ لله إليها لأنّه غنيّ مطلق غير محتاج، وقد تقرّر في علم العقائد أنّ واجب الوجود لذاته، وهوالله عزّ وجلّ، منزّه عن النقص والحاجة، وإلا كان محتاجا إلى سابقٍ أو مساوٍ، فتتعطّل حينئذ - والعياذ بالله - الذاتُ الإلهيّة ويلزم التسلسل والدور، وهما مستحيلان عقلا، - وإنّما اكتفيت بالإشارة إليهما هنا، ليبقيا في ذهن القارئ الكريم عند مطالعة الكتيّب الثاني الذي سيصدر بإذن الله بعد الأوّل هذا، ويتناول الجوانب العقائديّة بأسلوب جديد، ويشرح هذين المصطلحين

(١) الحجر: ٩٩.

في سياق عرض الأدلّة على وجود الله تعالى - . وهذا ما أقرّه العقل في منظومة فكريّة متّصلة تثبت بالأدلّة الساطعة والبراهين القاطعة صفات الجمال والكمال له، عزّ وجلّ، وتنزّهه عن صفات الجلال والنقص. وبهذا يتّضح حصرُ الفائدة من هذه العبادة بالإنسان العابد، ولا تتوقّف الفائدة هذه عند حدود الدنيا، بل تتجاوزها إلى الآخرة. فمن رشحاتها في الدنيا أنّها تعود على الإنسان - كعامل نفسيّ - بالسعادة والصفاء والطمأنينة، وهي غاية ما ينشده الإنسان هنا، دون أن يلهث خلف متاع الدنيا، من المال والنفوذ وما شابههما ليحقّق سعادة تُحسنُ الإمعان في النوى والبعاد.

ومن آثارها في الآخرة أنّها - والصلاة أعلاها رتبة - شرطٌ لدخول الجنّة، وسيأتي في محاضرة أخرى في هذا الكتاب تحت عنوان: «الصلاة» كونها - كعبادةٍ أُولى في رتبة العبادات - مِفتاح قبول بقيّة الأعمال. وما أعدّه الله تعالى للمصلّين من ثواب عظيم، وما يستفاد من كثرة ذكر الصلاة في القرآن الكريم أمارةٌ على ذلك.

وحلاوة العبادة في أنّها تحقّق القرب المعنويّ من الله تعالى، وما فيه من أُنس المناجاة والسكون التي تُحوّل دموع الحزن إلى دموع فرح وطمأنينة لا يساويها في العالم كلّه فرحٌ

واطمئنان. هذا القرب المعنوي يحاذي استقامةَ الإنسان ونزاهتَه في الدنيا، ويُشعره بعدم قيمتها، فيتخلى عن متاعها الفارغ، ويتحلّى بآداب النبيّ والعترة الطاهرين، عليهم أفضل الصلاة والتسليم، ثم يتجلّى في علاقته مع الله حتى يصل إلى مرحلة اليقين المسبوقة بالمعرفة كما هو تفسير الآية الكريمة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1] أي ليعرفوا الله عزّ وجل، فتنتج عن هذه المعرفة عبادته تعالى وامتثال أحكامه المباركة، متساوقا مع حديث قدسيّ مشهور يحدّد الهدف من الخلق، وهو المعرفة التي تلزم منها العبادة، فقد ورد فيه: «كنتُ كنزاً مخفيّاً فأحببتُ أن أعرف فخلقت الخلق لكي أعرف.»[2]

ومن قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ لا يُفهم ما ادّعاه بعض الصوفيين من أنّه بعد الوصول إلى مرحلة اليقين تسقط العبادة، وهذا كلام غريب عن الإسلام وأحكامه الشرعيّة، ومنها الصلاة التي أجمع المسلمون على وجوبها وعدم سقوطها بترّهات وأساليب انحرافيّة غايتها الطعن بالدين والنيل من المسلمين. ولا تنفع إلى جانب هذه الأساليب تذرّعات واهية كقول البعض: «الإيمان بالقلب.» وسوى ذلك

(١) الذاريات: ٥٦.
(٢) المجلسي، بحار الأنوار، ج٨٤، ص١٩٩.

من كلمات التهرّب والتنصّل من المسؤوليّة الشرعيّة، رغبة في تبرير معصيتهم وعدم امتثالهم للأوامر الإلهيّة، كمن يعترض على الحجاب مثلا بالعفاف الروحيّ وهي أقوال لا تغني ولا تسمن في معادلات العقل والمنطق. مع العلم أنّ أركان الإسلام قائمة - مضافا إلى الاعتقاد والأخلاق - على العمل، المعضود إلى جانب روايات عامّة برواياتٍ خاصّة تتحدث عن كلّ عمل بعينه، مثل ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ شفاعتنا لا تنال مستخفّا بالصلاة»[1] فكيف بمن ترك جميع العبادات التي هي من العمل في الأركان الواردة في الخبر عن النبي صلى الله عليه وآله، حيث سأله أمير المؤمنين عليه السلام عن الإيمان، فقال صلى الله عليه وآله: «تصديق بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالأركان.»[2]

مع تفسيرٍ لطيفٍ لليقين بالموت وهو يحمل معنى عميقا في دلالته، إذ به تنكشف الحقائق المجهولة وتتّضح معالم الأمور وما يكون خلف المادّة ممّا لا يدركه الإنسان، حيث أشارت الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.[3] باستخدام وزن فعيل (حديد) بمعنى

---

(١) الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج١، ص٢٠٦.
(٢) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٦٦، ص٦٨.
(٣) ق: ٢٢.

(حادّ) على وزن فاعل في الأصل، رُدّت إلى فعيل لزيادة الدلالة في المعنى وتكثّرِها، ما يُسمّى بصيغة المبالغة.

وبالعودة إلى معنى اليقين الأوّل، وهو الجزم والاعتقاد، وزوال الشك والظنّ والوهم، فإنّه من المفيد الإشارة إلى درجاته ومراتبه التي قسّمت إلى ثلاثة أقسام:

١- **علم اليقين**: وهو اعتقاد ثابت جازم مطابق للواقع، وهو يحصل من الاستدلال باللوازم والملزومات، ومثاله اليقين بوجود النار من مشاهدة الدخان.

٢- **عين اليقين**: وهو مشاهدة المطلوب ورؤيته بعين البصيرة والباطن، ومثاله اليقين بوجود النار عند رؤيتها عيانا.

٣- **حقّ اليقين**: وهو أن تحصل وحدة معنويّة وربط حقيقي بين العاقل والمعقول، بحيث يرى العاقل ذاته رشحة من المعقول ومرتبطا به غير منفكّ عنه، ويشاهد دائما ببصيرته فَيَضَانَ الأنوار والآثار منه إليه، ومثاله اليقين بوجود النار بالدخول فيها من غير احتراق.

ثم فوق ذلك مرتبة - رابعة - يثبتها بعض أهل السلوك

ويعبّرون عنها بحقيقة حقّ اليقين.[1]

إلى هنا نستنتج أنّ هذه المراتب لا بدّ أن تترافق مع الورع والتقوى، ففي كتاب أمير المؤمنين عليه السلام إلى عثمان بن حنيف الأنصاري: «أعينوني بورع واجتهاد وعفّة وسداد.»[2] وفي المرويّ عن الإمام الكاظم عليه السلام: «فوالله ما شيعتنا إلا من اتّقى الله.»[3]

فالإنسان المؤمن الحقيقي هو المتقّي الملتزم بمبادئ أهل البيت عليهم السلام، وعندما يعمل صالحا يصل إلى درجة من درجات التقوى تؤهّله للمراتب العالية، فيقترب من الله عزّ وجل أكثر، ومهما بلغ فإنّه لا يصل إلى رتبة المعصومين عليهم السلام، بدرهم الساطع أمير المؤمنين سلام الله عليه حيث يقول: «لو كشف الغطاء عنّي ما ازددت يقينا.»[4]

أختم حديثي بدعاء ورد في المناجاة الشعبانية عسى أن يستجيب الله لنا ببركة النبيّ وآله صلوات الله عليهم أجمعين.

---

(١) النراقي، محمد مهدي، جامع السعادات، ج١، ص ١٢٨- ١٢٩.
(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج١٦، ص٢٠٥.
(٣) الكليني، الكافي، ج٢، ص٧٤.
(٤) شرح كلمات أمير المؤمنين، عبدالوهاب، ص٣.

«إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك، وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك، حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور، فتصل إلى معدن العظمة وتصير أرواحنا معلّقة بعزّ قدسك...»(١)

وآخر دعوانا أن الحمدلله رب العالمين.

(١) ابن طاووس، إقبال الاعمال، ج٣، ص٢٩٩.

العبادة والشكر

ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «إِنَّ قَوْماً عَبَدُوا اللهَ رَغْبَةً فَتِلْكَ عِبَادَةُ التُّجَّارِ، وَإِنَّ قَوْماً عَبَدُوا اللهَ رَهْبَةً فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْعَبِيدِ، وَإِنَّ قَوْماً عَبَدُوا اللهَ شُكْراً فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْأَحْرَارِ.»[1]

لا ريب أنّ الرواية ناظرة إلى مراتب العبادة عبر تحديد دقيق للأسباب الباعثة إليها، وليست في مقام إبطال بعض أنواعها، بل هي بهذه البواعث المذكورة صحيحة، وتؤدّي التكليف الإلهيّ، وامتثالُها يحقّق الغرض في نيل الثواب ورفع العقاب. فما دامت نيّة القربة إلى الله متحققّة، والصلاةُ تامّةً بأجزائها وشرائطها، لم يكن ثمّة بأسٌ فيها.

ومع التمعّن في كلام الأمير عليه السلام، يظهر الانسجام بين

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج١٩، ص٦٨.

السبب الداعي إلى العبادة والتوصيف الذي ينتج عنه؛ فالرغبة كسبب تجعل من الراغب تاجرا، لأنّه المعهود منه في طلب الربح، ولذلك يسعى العابد الراغب إلى امتثال العبادة طمعا في كسب الأجر والثواب وهذا حال التاجر. ولا يقدح ذلك في صحّة العبادة - كما أشرنا - لأنّ الامتثال متحقّق بالشرائط والأجزاء، بل الصريحُ في الأدلّة المرغّبة عوامَ الناس إلى امتثال التكاليف ناطقٌ بذلك؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ... الآية﴾[1] فقد جاء التعبير بالتجارة في الآية الكريمة بمنزلة الحافز لدفع المؤمنين نحو الاعتقاد والعمل مقابل ما سينالهم من ربحٍ عميم.

والرهبة كسببٍ تجعل من الخائف عبدا بمعناه الاستعمالي المتداول بين العرب، وإن كان اللفظ بمعناه الحقيقي شاملا للبشر كلّهم، لأنّ من شأن العبد أن يخاف من مولاه، فيسعى إلى تنفيذ أوامره دفعا للعقاب. ولا يقدح ذلك في صحّة امتثال العبادة، بل ورد المدح الإلهي للذين هم لربّهم يرهبون؛ قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي

(١) الصفّ: (١٠-١١).

نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾.[1] فالهدى والرحمة من جملة الألطاف الإلهيّة التي أسبغها الله على عباده الراهبين.

والشكر كسبب يُظهر مكانة المكلّف الشاكر، وهو يتخطى النوعين السابقين بمسافات بعيدة، فَحَقَّ له أن يكون حرّا؛ وأفرادُه نادرون كالكبريت الأحمر، بدرُهم الساطع أمير المؤمنين عليه السلام، يُناجي ربّه بيقين ثابت وقلب خاشع: «إلهي مَا عَبَدْتُكَ خَوْفاً مِنْ عقابكَ وَلاَ طَمَعاً فِي ثوابكَ، ولكن وَجَدْتُكَ أَهْلاً لِلْعِبَادَةِ فَعَبَدْتُكَ.»[2] وهذا يمثّل أعلى درجات النزاهة في العلاقة مع الله عزّ وجل، لأنّ همّه الوحيد الخضوع والخشوع والتسليم لله دون الالتفات إلى أيّ أمر آخر، فلا النار تخيفه ولا الجنّة ترغّبه، إنّما يكون لحاظه أهليّة الباري للعبادة واستحقاقه لها، فيكون الشكر تعبيرا صادقا عن دواخله وطريقا مستقيما موصلا إلى الله عزّ وجلّ.

ولبيان مكانة الشكر وأهميّته بل وندرته بالمعنى الخالص النزيه يحسن بنا استطلاع بعض آيات القرآن الكريم التي تشير بوضوح إلى العدد القليل من الشاكرين؛ قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ

(١) الأعراف: ١٥٤.
(٢) المجلسي، بحار الأنوار، ج٤١، ص١٤.

الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.(١) ومثل هذه الآية في الإشارة إلى قلة الشكر آياتٌ أخرى في الكتاب العزيز؛ ما ينبئ مع التكرار هذا – من جهة – بمطلوبيّة الشكر ومحبوبيّته لمصلحة العبد لا لحاجة الله إليه، قال تعالى: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾.(٢)، ومن جهة أخرى بتقريع الساهين عن الشكر أمام هذه العطاءات الكبيرة التي منّ الله تعالى بها على الناس، مضافا إلى آيات مباركات أخرى تدعو بصيغة الأمر إلى الشكر، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.(٣)

وآيات أخرى تشير إلى أنّ الشكر ينبغي أن يكون من داخل النفس يدعو إليه الضمير الحيّ وسجيّة الإنسان لدرجة أنّه لا يحتاج إلى دعوة أو طلب، إذ من البديهي بحكم العقل أن يشكر الإنسان المنعم، ولذا جاءت الآيات بسياقٍ يشير إلى النتيجة الطبيعية والمنتظرة حيال النعم الممنوحة للإنسان بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. في مواضع متعدّدة، منها عزَّ قائلها:

(١) المؤمنون: ٧٨.
(٢) النمل: ٤٠.
(٣) البقرة: ١٧٢.

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.[1]

إلى غير ذلك من أساليب متنوّعة تُظهر مدى عناية الله عزّ وجل في هذه المسألة، منها: ﴿أفلا يشكرون﴾.[2] ومنها: ﴿فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ﴾.[3] ومنها: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ﴾.[4] ومنها: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾.[5] ومنها: ﴿وَقَلِيلٌ مَنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾.[6] ولأهميّة الشكر وأثره سألَه عباد الله الصالحون؛ قال تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ... الآية﴾.[7] ما يضيف معنى عميقا للشكر يستبطن رتبة عالية.

من هنا يتّضح المائز في عبادة أمير المؤمنين عليه السلام، ويتعمّق فهم الرواية المتصدّرة الواردة عنه، بل يظهر عمق المعنى في مناجاته المرويّة أيضا.

---

(١) النحل: ٧٨.
(٢) يس: ٧٣.
(٣) الواقعة: ٧٠.
(٤) غافر: ٦١.
(٥) النمل: ٧٣.
(٦) سبأ: ١٣.
(٧) النمل: ١٩.

ومن اقتران الشكر بالعبادة كما في قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿...فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾.[3] تظهر أهميّة العبادة وكونها من موجبات الشكر لله تعالى إذا كانت عبادة خالصة لوجه الله، نبيلة في غايتها.

مع ملاحظة فائدة العبادة لمصلحة العبد وكونها سلّما ذهبيا لارتقائه في طريق الكمال، وليست مطلوبيّتها من الله عزّ وجلّ إلا حبّا لعباده وحرصا عليهم دون حاجة إلى عبادتهم؛ وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[4] فسّرته روايات عديدة بالمعرفة، إذ لا تتحقّق العبادة الحقيقيّة إلا بمعرفة المعبود على مراتب متفاوتة في المعرفة بين الأفراد. وعن تفسيرها بالمعرفة ورد في علل الشرائع عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «خرج الحسين بن عليّ عليهما السلام على أصحابه فقال أيّها الناس إنّ الله جلّ ذكره ما خلق العباد إلا ليعرفوه فإذا

---

(١) البقرة: ١٧٢.
(٢) العنكبوت: ١٧.
(٣) الزمر: ٦٦.
(٤) الذاريات: ٥٦.

عرفوه عبدوه وإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة من سواه فقال له رجل يا ابن رسول الله بأبي أنت وأمّي فما معرفة الله قال معرفة أهل كلّ زمان إمامهم الذي تجب عليهم طاعته.»(١) وضرورة احترام المعبود وعبادته محتومة بضرورة معرفته حتّى تكون العبادة لائقة بحاله، وهذا ما يقرّه العقل والشرع استنادا إلى قاعدة وجوب شكر المنعم العقلية التي يلزم منها معرفة المنعم للإتيان بما يليق بشكره، وهي قاعدة عامّة ارتُكز عليها كأحد الأدلّة على وجوب معرفة الله عزّ وجلّ. لذا، لا بدّ أن تنطلق العبادة من المعرفة انسجاما مع كلام أمير المؤمنين عليه السلام في إحدى خطبه: «أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ، وَكَمَالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصْدِيقُ بِهِ، وَكَمَالُ تَصْدِيقِهِ تَوْحِيدُهُ، وَكَمَالُ تَوْحِيدِهِ الإخلاص له وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه.»(٢)

ومن هنا جاءت العناية بعلم العقائد وشديد أهميّته بل كونه الأوّل بين العلوم شرفا ورتبة لأنّه مدار كلّ شيء في منظومة الفكر البشري المتبوع بالعمل؛ والعبادة هي أوضح مصاديق العمل والامتثال، وأعلاها الصلاة التي ورد كثير الحثّ عليها في الكتاب والسنّة. وبهذا يظهر الفارق بين العقائديّ الحقّ الذي

(١) الفيض الكاشاني، التفسير الصافي، ج٥، ص٧٥.
(٢) الطبرسي، الاحتجاج، ج١، ص٢٩٥ - ٢٩٦.

يعتمد على وجوه المعرفة في عبادة الله عزّ وجلّ وبين غيره ممّن يعتمد على ترّهات وأباطيل فيجعل الله جسما والعياذ بالله، كأن يفسّر المعنى المجازي الوارد في الكتاب بالحقيقي ليكون لله يدٌ ووجه وسوى ذلك، وهذا مردود بأدنى تأمّل ولا يختلف فيه العقلاء، بل مع التأمّل لا يخفى ما وراء ذلك من حرب ضروس يشنّها أعداء الإنسانية على الدين.

وفي سياق المعرفة نستعرض ما ورد من حديث قدسي عن الله عزّ وجلّ: «كُنتُ كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق.»(١) بمعنى: خلقت الخلق للمعرفة، وبقدر المعرفة تختلف العبادة بين فردٍ وآخر اختلافا في الدرجة، ولذا كان مفهومها مفهوما تشكيكيّا كما يقال في علم المنطق، ومع العلم والتقوى تزداد درجة ورتبة العبادة، ولهذا ورد في الروايات: «ركعتان يصليهما العالم أفضل من ألف ركعة يُصليها العابد.»(٢) وورد أيضاً أنّ: «فكر ساعة خير من عبادة سنة.»(٣)

وبعد هذا البيان يتّضح معنى قول أمير المؤمنين عليه السلام الذي بدأنا به كلامنا: «إِنَّ قَوْماً عَبَدُوا اللهَ رَغْبَةً فَتِلْكَ عِبَادَةُ التُّجَّارِ،

(١) المجلسي، بحار الأنوار، ج٨٤، ص ١٩٩.
(٢) الريشهري، ميزان الحكمة، ج٣، ص٢٠٦٩.
(٣) المصدر نفسه، ص٢٤٦٥.

وَإِنَّ قَوْماً عَبَدُوا اللهَ رَهْبَةً فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْعَبِيدِ، وَإِنَّ قَوْماً عَبَدُوا اللهَ شُكْراً فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْأَحْرَارِ».

هذا منهج رسول الله صلى الله عليه وآله، هذا منهج أمير المؤمنين عليه السلام، هذا منهج أئمة الهدى سلام الله عليهم أجمعين.

جعلنا الله وإيّاكم أحرارا في عبادتنا، وحشرنا مع السادة الميامين من النبيّ وآله الطاهرين، والحمدلله ربّ العالمين.

صلاتي نجاتي

قال الله الحكيم في كتابه الكريم: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾[١]

الصلاة عمود الدين، وهي من الركائز المهمّة التي بُنيت عليها الشريعة الإسلاميّة، كما ورد في روايات أهل البيت عليهم السلام، فعن الإمام الباقر عليه السلام: «بني الإسلام على خمس: الصلاة والزكاة والصوم والحجّ والولاية، ولم يناد بشيء ما نودي بالولاية يوم الغدير ... فأخذ الناس بأربع وتركوا هذه، يعني الولاية»[٢]. والتعبير عن الصلاة بعمود الدين جاء في أكثر من رواية فسّرت المراد وأظهرت أهميّتها وضرورتها، كالمرويّ عنه عليه السلام - أيضا - أنّه قال: «الصلاة عمود الدين، مثلها كمثل عمود الفسطاط[٣]؛

---

(١) العنكبوت: ٤٥.

(٢) الكليني، أصول الكافي، ج٢، ص١٨.

(٣) الفسطاط: الخيمة الكبيرة.

إذا ثبت العمود يثبت الأوتاد[١] والأطناب[٢]، وإذا مال العمود وانكسر لم يثبت وتد ولا طنب.»[٣].

ولشدّة أهميّتها جُعلت يوم القيامة ميزانا ومعيارا في قبول الأعمال وردّها، فكانت «أوّل ما يحاسب به العبد» وهي: «إن قبلت قبل ما سواها وإن ردّت ردّ ما سواها.» حتّى إنّ المستخفّ بالصلاة يُحرم بركة الشفاعة، فقد رُوِيَ عن الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ شفاعتنا لا تنال مستخفّا بالصلاة»[٤] فكيف بمن تركها وأعرض عنها؟!

وهي محلّ امتحانٍ ومدارُ تمييز بين الكافر والمؤمن وبين الملتزم والمتهاون، كما دلّ على ذلك الخبر الوارد عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله: «امتحنوا شيعتنا عند ثلاث: عند مواقيت الصلاة كيف محافظتهم عليها...»[٥]. وهنا ينبغي أن يلتفت المكلّف إلى امتثال هذه العبادة فيترك ما في يديه من أعمال، ويؤدّيها في وقتها ولا يشغل نفسه في أمور دنيوية تُبعده عن ذكر

---

(١) الأوتاد: جمع وتد، وهو ما تثبّت به الخيمة في الأرض من خشب أو حديد ونحوهما.
(٢) الأطناب: جمع طنب، وهو حبل تشدّ به الخيمة.
(٣) المحاسن، ج١، ص١١٦- ١١٧.
(٤) الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج١، ص٢٠٦.
(٥) الريشهري، ميزان الحكمة، ج٤، ص٢٨٥٢.

الله عز وجلّ بنوم أو سهر أو لهو وشبه ذلك، حتى لا تشتكي عليه يوم القيامة، إذ عند إهمالها من غير علّة وقضائها يرفعها الملك «سوداء مظلمة وهي تهتف به: ضيّعتني ضيّعك الله كما ضيّعتني، ولا رعاك الله كما لم ترعني»[1] كما في الخبر الوارد عن الإمام الصادق عليه السلام. فلا بدّ أن يلتفت أبناؤنا وبناتنا، بل من هم ليسوا في مرحلة الشباب -مراهقين وكهولا وشيوخا - إلى احترام أوقات الصلاة فلا يقدّمون ملذّات الدنيا - ومنها طفرة الأجهزة الذكيّة وويلاتها ومخاطرها الفادحة - على ذكر الله عزّ وجل، لأنّ في الغفلة عن الصلاة آثارا جسيمة منها ذهاب الوازع والرادع عن فعل الفحشاء والمنكر: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَر..﴾[2].

فالإنسان المؤمن الورع هو الذي يبادر إلى الصلاة في أوّل الوقت، حتى لو كان موسّعا! ولذا حثّت الروايات على الصلاة في أوّل الوقت وجعلت لذلك فضيلة - أي زيادة في الأجر والثواب - فعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما من صلاة يحضر وقتها إلا نادى ملك بين يدي الناس: أيّها الناس قوموا إلى نيرانكم التي

---

(١) الأمالي للصدوق، ص ٣٢٨.
(٢) العنكبوت: ٤٥.

أوقدتموها على ظهوركم، فأطفئوها بصلاتكم»[1]. فكم نحن بحاجة إلى إطفاء ما أوقدته الغفلة على ظهورنا من نيران حارقة لا تعادل شرارة من نيران جهنّم أعاذنا الله وإيّاكم منها!

متى تغفر الذنوب والمعاصي؟

لا شكّ أنّ المكلّف إذا أناب إلى الله ورجع عن ذنبه تائبا موطّنا نفسه على عدم العودة إلى المعاصي مستشعرا الندم الشديد مستجمعا شروط التوبة، مقبلا على أداء الواجبات ومنها الصلاة، فإنّ رحمة الله ستشمله، وهو القائل عزّ وجل: ﴿إِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2] فما أجمل هذه البشارة من الله الكريم! وما أجمل هذا اللطف والتفضّل والإحسان!

وإلى أهمّيّة الخشوع في الصلاة وأدائها بحضور قلبيّ وتوجّه تامّ وجّهنا النبي صلى الله عليه وآله إلى الحال الذي ينبغي أن نكون عليه أثناء أداء الصلاة، فقد ورد عنه صلى الله عليه وآله أنّه قال: «صل

---

(١) الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج١، ص٢٠٨.
(٢) الأنعام: ٥٤.

صلاة مودع...»[1] إذ ربّما أزف الرحيل ولم يبق لنا إلاّ أداء هذه الصلاة. أعاننا الله وإياكم على أدائها في وقتها، وأيقظنا بها من السبات ونوم الغفلة، وأنالنا ببركاتها الفوز العظيم بسلامة الحال وحسن المآل.

ومن جملة بركات الصلاة أنّها وسيلة للعروج بالمؤمن، وهي من مصاديق الارتباط بالله عزّ وجلّ حيث تهيم الروح في فضاء العشق الإلهي وتخلع ثوب الارتباط بالدنيا ومتاهاتها المظلمة، وتنطلق إلى النور الأعلى أثناء تأدية هذه العبادة، وقد ورد في الأثر أنّ: «الصلاة معراج المؤمن»[2]. وهذا أمير المؤمنين ومولى المتّقين كما ورد في سيرته المباركة أنّه كان يقف بين يدي الله تعالى بعد انتهائه من المعركة فتخرج من جسده آثار السهام والنبال وقد تعلّقت روحه بعالم الملكوت، وتجرّد عن جسده وارتبط بالله عزّ وجلّ، بما في ذلك من دلالة واضحة على زوال الألم الجسدي بالانتقال إلى هذه المرحلة من اليقين، وهو الذي لو كشف له الغطاء ما ازداد يقينا.

وعنه عليه السلام: «الصلاة قربان كل تقيّ»[3]. فقد أشار الأمير

(١) مستدرك الوسائل، ج٤، ص١٠٤.
(٢) الريشهري، الصلاة في الكتاب والسنة، ص١٥.
(٣) نهج البلاغة، الحكمة: ١٣٣.

عليه السلام إلى إحدى موصلات التقوى إلى الإنسان المؤمن، وهي الصلاة كشرط أساس للوصول إلى هذه الرتبة، فتكون الصلاة قربانا لهذا المتّقي، تزيد في قربه من الله عزّ وجلّ.

أبنائي وبناتي، وكلّ من يقرأ: أوصيكم ونفسي بتقوى الله وأداء الصلاة في وقتها».

أيها الآباء والأمهات: الله الله في الصلاة، وحثّ أولادكم وإرشادهم إلى الحفاظ على الصلاة. فإذا رأينا أبناءنا وبناتنا يؤدّون الصلاة في وقتها محصّلين شرائطها متمّمين أجزاءها، فسوف نطمئنّ لأنّهم على الطريق الصحيح، وتكون الصلاة لنا عونا في تربيتهم.

ويجدر الالتفات إلى وجوب مراعاة وقت البلوغ عند الأبناء والبنات لأنّ بعض الآباء والأمّهات يتهاونون عند بلوغ أولادهم، ويتذرّعون بأنّهم ما زالوا صغارا، وهذا غير جائز. فبلوغ البنت عند إتمامها تسع سنين قمريّة، وهو سنّ تكليفها، فيجب عليها كلّ ما وجب على المرأة البالغة من صوم وصلاة وارتداء للحجاب ونحو ذلك من الواجبات المعروفة، ويحرم عليها أن تتبرّج وأن تظهر زينتها أمام غير الأرحام. وكذلك الصبيّ إذا حاز إحدى علامات البلوغ المعروفة، يجب عليه

الالتزام وأداء الواجبات ومنها الصلاة والابتعاد عن المحرّمات، وقد ورد في بعض الروايات الإرشاد إلى تعليمه الصلاة عندما يبلغ سبع سنين، وهذا يشجّعه على الاستمرار عليها بعد البلوغ.

يطرح البعض تساؤلات حول أشخاص يؤدّون الصلاة ولكنّهم لا ينتهون عن الفحشاء والمنكر، فكيف نوفّق بين هؤلاء وبين ما ورد في القرآن الكريم من أنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر؟!

وتبيان الأمر من جوانبه كافّة يحتاج إلى بحث خاصّ إلاّ أنّه يمكن تقديم بعض الإجابات التي تفي بالغرض هنا:

أوّلا: ربّما تكون الصلاة قد فقدت بعض شرائطها بسبب جهل أو لا مبالاة من قبل المكلّف، فلا تكون صحيحة وتفقد أثرها في النهي عن الفحشاء لأنّها مجرّد صورة وأفعال فارغة من مضمونها ولا يتحقّق بها الامتثال لله تعالى، ولذلك لن تعطي الأثر في تهذيب النفس. كأنْ يكون الوضوء غير صحيح فينتج عنه عدم صحّة الصلاة.

ثانيا: قد تكون الصلاة صحيحة إلاّ أنّ تأثيرها نسبيّ؛ حيث إنّ المكلّف لو لم يصلّ لفعل ما هو أقبح وأشدّ فحشا، فتكون الصلاة قد أوقفته عند حدّ معيّن من المخالفة الشرعية.

ثالثا: قد يكون المراد من قوله تعالى: ﴿إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾. إلفات النظر إلى الهدف الذي جُعلت الصلاة لأجله، وحينئذٍ تكون الصلاة المطلوبة هي الناهية عن الفحشاء والمنكر، فمن أدّى الصلاة ولم ينته عن ذلك فإنّه قد أخلّ بالتكليف، وهذا ما يعبّر عنه بالتكليف المجموعي المفيد للأثر بمعنى أنّ التكليف هو مجموع الصلاة والنهي.

ومع هذه الإجابات لا يصمد الإشكال المذكور!

لذا ينبغي على المكلّف أن يختبر صلاته عبر القراءة في الكتب الموثوقة أو سؤال أهل العلم عن صحّة صلاته ووضوئه، وقد ورد في الحكمة عن النبي صلى الله عليه وآله: «ابحث عن دينك حتى يقال عنك مجنون»[1] وورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «العلم خزائن ومفاتيحه السؤال ...»[2] وجاء في الأثر: «هلك كثير من الناس بتركهم السؤال» فعلى الإنسان أن ينتبه إلى مثل هذه الأمور ويسأل ويتفقّه في دينه.

وأهمّية الصلاة وشدّة مطلوبيّتها تظهر في عدم سقوطها عن المكلّف رغم اشتداد الأحوال، فالعاجز عن الوقوف يصلّي

---

(١) التيجاني، ثم اهتديت، ص٧٥.
(٢) المجلسي، بحار الأنوار، ج١، ص١٩٦.

عن جلوس، والعاجز عن الجلوس يصلّي وهو مضطجع، حتّى الغريق يصلي مع التمكّن، بل تجب الصلاة في وقت الحرب، وقد ذُكر عن أمير المؤمنين عليه السلام وقت الحرب أنّه نادى إلى الصلاة؛ فقيل له يا أمير المؤمنين: «وهل الآن وقت الصلاة؟!». فقال: «إذن، لماذا نحاربهم؟!» وكذلك في سيرة الإمام الحسين عندما حضر وقت الصلاة، قال أحد أصحابه وهو أبو تمامة الصائدي: «حضر وقت الصلاة يا أبا عبد الله». فقال له الإمام الحسين عليه السلام: «ذكرت الصلاة جعلك الله من المصلّين الذاكرين، نعم هذا أوّل وقتها ...»[١].

اللهم اجعلنا ممّن قبلت صلاتهم، وكانت سببا لمنعهم عن فعل الذنوب والمعاصي.

(١) تاريخ الطبري، ج٤، ص٣٣٤.

الصّلاة

جاء في الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «أول ما يحاسب عليه العبد الصلاة، فإذا قُبلت قُبل سائر عمله، وإذا رُدّت عليه رُدّ عليه سائر عمله»[1].

الصلاة لها معنيان: أحدهما لغويّ، والآخر اصطلاحيّ. فالمعنى اللغوي للصلاة هو الدعاء، والمعنى الاصطلاحي لها عند الشارع المقدس، هو الكيفيّة المعروفة التي أوجبها الله عزّ وجل على عباده كالصلوات الخمس، أو ندبها كصلاة الليل. ولذا كان هذا اللفظ منقولا من معناه اللغوي إلى معناه الاصطلاحي الشرعيّ مع هجر المعنى الأوّل عند المسلمين. والمنقول هو قسيم المختصّ والمرتجل والمشترك والحقيقة والمجاز، كما ورد في مباحث الألفاظ كمقدّمة للأبحاث المنطقية.

---

(١) المجلسي، بحار الأنوار، ج٧٩، ص٢٣٦.

غير أنّ هَجْرَ المعنى السابق وهو الدعاء مختصّ بالمسلمين، أمّا غيرهم كالمسيحيين، فإنّهم لا يزالون يستعملونه في الدعاء، لذا تراهم في محنهم وابتلاءاتهم وما شاكلها يعبّرون بالصلاة ويقصدون الدعاء، كأنْ يقول أحدهم للمريض: «سوف أصلّي لك.» أي سوف أسال الله وأدعوه لشفائك.

أمّا المعنى الثاني فإنّه جاء عندنا بوضع شرعيّ، فانتقل من معناه اللغوي إلى المعنى الشرعيّ، وأصبح دالا عليه بالتبادر وهو - كما هو معروف - علامة الحقيقة، فلا يقال إنّ استعمال الصلاة بمعنى الكيفيّة المذكورة استعمال مجازي على الإطلاق. لذا لا يتوهّمنّ أحد - عند قراءته في المعجم أنّ معنى الصلاة هو الدعاء - بمجازيّة استعماله بالكيفيّة المذكورة.

ومع حديثنا عن المنقول هذا، الذي هجر معناه الأوّل ولو عند المسلمين فحسب، يحسن بنا أن نعرّف باختصار ما ينقسم إليه اللفظ وإن كنّا قد أشرنا إلى العناوين قبل قليل، وهي على الشكل الآتي من كتاب المنطق للمجتهد المجدّد الشيخ محمّد رضا المظفّر رحمه الله:

١ - **المختصّ**: وهو اللفظ الذي ليس له إلا معنى واحد فاختصّ به، مثل: حديد وحيوان.

٢- **المشترك**: وهو اللفظ الذي تعدّد معناه وقد وضع للجميع. كلّ - وضع - على حدة، ولكن من دون أن يسبق وضعه لبعضها على وضعه للآخر، مثل: عين الموضوع لحاسّة النظر وينبوع الماء والذهب وغيرها.

٣- **المنقول**: - محلّ الشاهد - وهو اللفظ الذي تعدّد معناه وقد وضع للجميع كالمشترك، ولكن يفترق عنه بأنّ الوضع لأحدها مسبوق بالوضع للآخر مع ملاحظة المناسبة بين المعنيين في الوضع اللاحق، مثل لفظ الصلاة الموضوع أوّلا للدعاء ثم نقل في الشرع الإسلامي لهذه الأفعال المخصوصة من قيام وركوع وسجود ونحوها لمناسبتها للمعنى الأوّل... والمنقول ينسب إلى ناقله، فإن كان العرف العام، قيل له: منقول عرفي كلفظ السيّارة والطائرة؛ وإن كان العرف الخاص كعرف أهل الشرع والمناطقة والنحاة والفلاسفة ونحوهم، قيل له: منقول شرعي أو منطقي أو نحوي أو فلسفي.. وهكذا.

٤- **المرتجل**: وهو كالمنقول بلا فرق، إلا أنّه لم تلحظ فيه المناسبة بين المعنيين، ومنه أكثر الأعلام الشخصيّة - فالذي يسمّي ابنته «جميلة» لم يلحظ فيها الجمال كباعث للتسمية لأنّها قد تكبر وتكون دميمة مثلا، فهو يرتجل الاسم ارتجالا بلا مناسبة بين الجمال وطفلته -.

٥- **الحقيقة والمجاز**: وهو اللفظ الذي تعدّد معناه ولكنّه موضوع لأحد المعاني فقط، واستعمل في غيره لعلاقة ومناسبة بينه وبين المعنى الأوّل الموضوع له، من دون أن يبلغ حدّ الوضع في المعنى الثاني، فيسمّى حقيقة في المعنى الأوّل ومجازا في الثاني.)[١]

وتتميما للبحث نشير إلى المناسبة في المنقول ككلمة الصلاة بين المعنى الثاني المستعمل (الكيفيّة المخصوصة) والمعنى الأوّل المهجور (الدعاء)؛ فالمناسبة والعلاقة بينهما هي علاقة المشابهة لاشتمال الصلاة المؤدّاة على الدعاء كما هو قول جماعة، وهذه العلاقة كافية لإظهار المناسبة وتبريرها. وإن كانت المناسبات في التسمية عموما سواء في المنقول وغيره، تختلف بلحاظ اختلاف العلاقة بين المعنيين، فمثال المنقول - غير الصلاة - لفظة الحج، إذ العلاقة بين المعنى اللغوي للحجّ وهو مطلق القصد والمعنى الشرعي له وهو القصد الخاص إلى مكّة المكرّمة علاقة العموم والخصوص المطلق كما لا يخفى. وفي غير المنقول كالمجاز المرسل حيث تكون العلاقة غير المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي، كأنْ تكون سببيّة مثلا كما في قولنا: رعت الماشية الغيث، فجاء الغيث هنا

(١) المظفّر، الشيخ محمّد رضا، المنطق، ص٤٧، ٤٨، و٤٩.

بمعنى العشب لأنّه سبب لنباته، وسوى ذلك من العلاقات التي هي ليست محلّ كلامنا هنا.

يبقى أن نشير إلى بحث آخر ناقشه غير واحد من الأصوليّين، بينهم صاحب الكفاية الشيخ محمد كاظم الخراساني (قُدِّسَ سِرُّه) جاء تحت عنوان الحقيقة الشرعيّة والحقيقة المتشرّعيّة، حيث إنّ الألفاظ المخصوصة كالصلاة والصوم ونحوها، هل انتقلت من معانيها اللّغوية إلى معانيها الاصطلاحيّة على نحو الحقيقة الشرعيّة أو على نحو الحقيقة المتشرّعيّة؟ وقبل الدخول في البحث يحسن تعريف كلّ من الحقيقتين:

١ - **الحقيقة الشرعيّة**: هي نقل الألفاظ من معانيها الوضعية الّلغوية إلى المعاني المخصوصة من قبل النبيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِه. ولم نعبّر بـ «وضع الشارع الألفاظ» كما فعل بعض المعاصرين لأنّنا أمام نقل وليس أمام وضع، وإلا اشترك الوضع والنقل وأدّى ذلك إلى خللٍ في دلالة المصطلحات.

٢- **الحقيقة المتشرّعيّة**: هي نقل الألفاظ من معانيها الوضعيّة الّلغويّة إلى المعاني المخصوصة بعد زمن النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِه. سواء كان هذا النقل من قِبَل الأئمّة عَلَيْهِمُ السَّلَام أو من قِبَل غيرهم من المتعبّدين بالشريعة.

ولم نتحدّث هنا على الحقيقة اللغويّة، فبحثنا في المنقول الذي هجر معناه اللغوي، أمّا الذي بقي على معناه اللغوي وإن كان جزءا من المنقول كالركوع الذي هو جزء من الصلاة فهو واضح بيّنٌ في خروجه عن بحثنا، أو كالذي بقي على حاله بعد الإسلام بالمعنى الذي كان قبله كالبيع والإجارة وسوى ذلك من المعاملات فهو خارج أيضا.

ومع تعريف الحقيقة المتشرّعية يتّضح ثبوتها لأنّه من المعلوم قطعا تداول واستعمال هذه الألفاظ بعد زمن النبي صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآله بالمعاني المخصوصة، وقد وقع الخلاف في ثبوت الحقيقة الشرعيّة على أقوال مختلفة، منها: القول بثبوتها مطلقا، ومنها: القول بنفيها مطلقا، ومنها: القول بثبوتها في العبادات وحسب، ومنها: القول بثبوتها في بعض العبادات وهي خصوص التي كَثُرَ استعمالها كالصلاة.

والتوسّع ببحث الآراء والأدلّة ومناقشتها نفيا وإثباتا لا يتأتّى لهذا المختصر، حتى لا يخرج عن غرضه المعدّ له، وهو تأسيس ثقافة إسلاميّة عند القارئ أو المستمع على ضوء مدرسة أهل البيت عَلَيْهِمُالسَّلَامُ. ومن أراد التعمّق في مثل هذه الأبحاث، عليه أن يطرق باب الحوزة العلميّة ويتدرّج في تحصيل المطالب حتّى

يصل إلى مرتجاه.

وربّما يسأل سائل عن فائدة هذا البحث وجدواه، وجوابه كما ذكر الشيخ المظفّر (رحمه الله) أنّها «تظهر في الألفاظ الواردة في كلام الشارع مجرّدة عن القرينة، سواء أكانت في القرآن الكريم أم السنّة، فعلى القول بالحقيقة الشرعيّة يجب حملها على المعاني الشرعيّة، وعلى القول بالحقيقة المتشرّعيّة تحمل على المعاني اللغويّة، أو يتوقّف فيها فلا تحمل على المعاني الشرعيّة ولا على اللغويّة بناء على رأي من يذهب إلى التوقّف فيما إذا دار الأمر بين المعنى الحقيقي وبين المجاز المشهور – وهو الشيخ حسن، صاحب المعالم (قدس الله سرّه) – إذ من المعلوم أنّه إذا لم تثبت الحقيقة الشرعيّة، فهذه المعاني المستحدثة تكون على الأقلّ مجازا مشهورا في زمانه صلى الله عليه وآله»[1].

ومع العودة للرواية عن إمامنا الصادق عليه السلام التي ذكرناها في صدارة البحث وما تلاها من بيان حول الصلاة في اللغة والاصطلاح وما كان محلّ بحثٍ بين الأعلام نتبيّن أهميّتها عند الشارع المقدّس سواء في الرواية المذكورة أو في الآيات القرآنيّة التي أمرت بوجوبها وأشارت إلى موقعها الركنيّ في

(١) المظفّر، الشيخ محمّد رضا، أصول الفقه، ج١، ص٨٢. (بتصرّف غير مضرّ)

امتثالات العبد تكاليفَه التي أمره الله عز وجلّ بها.

وعلامةُ محوريّتها تلوح من خلال كونها شرطا أساسا لقبول باقي الأعمال، ما يعني أنّها العبادة الأولى كمطلوبية إلهيّة في سلّم الوجوب. ويُفهم من ذلك أيضا اشتراكُها في تقويم العبادات الأخرى لأنّها شرط في قبول سائر العمل.

وقد استفضنا في الكلام على أهميّة الصلاة في هذا الكتيّب تحت عنوان صلاتي نجاتي.

جعلنا الله وإيّاكم من المحافظين على صلاتهم، ومن الذين تنهاهم صلاتهم عن الفحشاء والمنكر، وممّن تُقبل صلاتُهم يوم القيامة حتّى تُقبل معها سائرُ العبادات والطاعات.

والحمدلله ربّ العالمين.

دور الصوم

ورد عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «صوموا تصحّوا.»[1]

طلب الصوم المستفاد من هذه الرواية يتوسّع في مدلوله الوجوبي الحكمي، ويتجاوز البيان التعبّديّ إلى بيان الآثار الماديّة التي تنتج عن الصوم، لأنّ الأحكام الشرعيّة، كما يُلاحظ المتتبّع، تارةً تكون مجهولة العلل، وأخرى تكون معروفة العلل بنصّ يؤكّد عليّتها، وثالثة تكون أسبابها ظاهرة على نحوٍ جزئي، يعبّر عنه أحيانا بالمقتضي الذي يكون له - ربّما - مدخليّة في صناعة الحكم الشرعي، لأنّ العلل تنقسم إلى تامّة وناقصة.

فالعلّة التامّة هي التي تتكوّن من مقتضٍ يقتضي التأثير كالنار التي تقتضي إحراق الورقة؛ وشرطٍ يصحح فاعليّة المقتضي كاقتراب النار من الورقة وملامستها لها؛ وعدمِ المانع

---

(١) الريشهري، ميزان الحكمة، ج٢، ص١٦٨٦.

من الإحراق بأن لا تكون الورقة مبلّلة بالماء، وإن جعل بعض العلماء العلّة التامّة منقسمة إلى قسمين هما: المقتضي وعدم المانع، على أن يدخل الشرط في عدم المانع أو المقتضي. ولا مجال للقول بتماميّة العلّة في الحكم الشرعي إلا بنصّ شرعيّ يؤكّد التماميّة، لأنّ يد العقل البشريّ لا تطال مثل هذه الأمور، فهي لا ترقى إلى مساواة الخالق في بواعثه وحِكَمِه. أمّا جهالة العلّة، فأمثلتها كثيرة في الشريعة المباركة، وإنّما يتعبّد المكلّف بامتثالها تسليما لله عزّ وجلّ. يبقى أن نشير إلى ما يكون جزء علّة وليس علّة تامّة للحكم، ومثال ذلك حرمة شرب الخمر بسبب الإسكار الذي قد يُتخيّل أنّه علّة تامّة، في حين أنّ شرب نقطة واحدة من الخمر لا تُسكر، ومع ذلك يبقى شربها محرّما، ما يعني أنّ الإسكار وحده لا يشكّل علّة تامّة إلا إذا قيل بأنّ الخمر من شأنه الإسكار وإن لم يُسكر في قليله، على نقاش يبحث في مكانه.

وغاية ذكر هذه الأقسام وبيانها يهدف للوصول إلى تفسير الرواية المتصدّرة وهو أنّ الشفاء من المرض - ربما - هو غاية من غايات الصيام أو سبب من أسبابه وليس العلّة التامّة له، حيث إنّ الصيام كعبادة لا يقتصر على حدّ ما ذكر.

وتحسن الإشارة هنا إلى الحركة الإسنادية في الرواية

ودلالتها. ولا نقصد بالإسناد السند والرجال، إنّما نقصد به ترابط كلماتها التي شكلت بنائيّتها، وما يرشح عنها من دلالة فعليّة. والناظر فيها يلاحظ وجود فعل الأمر «صوموا» المتّصل به واو الجماعة (الفاعل) ليشكّلا معاً جملة مؤلفة من عُمدتين هما الفعل والفاعل، وإلى جانب ذلك الفعل المضارع «تصحّوا» المتّصل به واو الجماعة (الفاعل). ومع إعراب تصحّوا يظهر جزم الفعل المضارع بحذف النون من آخره، ما يعني أنّ فعل الأمر صوموا وإن كان بالشكل أمريّا إلا أنّه في المضمون فعلُ شرط. والتقدير حينئذٍ: «إن تصوموا تصحّوا.» ما يرتّب أثرا في الدلالة مفاده أنّ الشفاء من المرض متوقّف على الصيام لتوقّف تحقّق جواب الشرط على تحقّق فعله. وهذا، يشكّل حافزا لقارئ الرواية على أداء الصوم وجوبا واستحبابا.

ثمّ إنّ الحديث المذكور يتوافق مع الرؤية العلميّة الحديثة الداعية إلى تقليل الطعام، بل وتباعد الوجبات، وما يعبّر عنه بالصيام الجزئي الذي يكون له دور في طرد السموم من الجسم وتحفيز عملية الاستقلاب، ولم يعد هذا الأمر مجرّد نظريّة، بل تعدّاه إلى تجارب سريريّة أعطت نتائج مذهلة في شفاء المرضى والحدّ من السمنة التي صُنِّفَتْ مؤخّرا كمرضٍ مستقلٍّ إلى جانب الأمراض الأخرى.

إنّ ما اكتُشف حديثا في هذا المجال كان مسبوقا بمسافاتٍ زمنيّةٍ طويلةٍ في مدرسة النبي وآله الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين، حيث بيّنوا فوائد هذا السلوك الصحيّ كالحديث المذكور في هذه المحاضرة أو أحاديث أخرى متعدّدة، منها ما ورد عن النبيّ صلى الله عليه وآله – أيضا – في قوله: «ما ملأ الآدمي وعاء شراً من بطنه، فإن كان ولا بدّ فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه.»[1]

مسبوقا – أيضا – بدعوة قرآنية واضحة إلى عدم الإسراف في الطعام والشراب؛ قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾.[2]

ناهيك عن دلالة أخرى لكثرة الأكل والإسراف تصل إلى حدّ الحرمة أو المساءلة الطويلة من الله عزّ وجل، كما هو مدلول الحديث الوارد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «ما من رجل طاب مطعمه ومشربه وملبسه إلا طال وقوفه بين يدي الله عز وجلّ يوم القيامة.»[3] وهذه دعوة واضحة وصريحة إلى عدم التبذير والإسراف المنهيّ عنهما في النصّ القرآني –

(١) النوري، مستدرك الوسائل، ج١٦، ص٢١٠.
(٢) الأعراف: ٣١.
(٣) المجلسي، بحار الأنوار، ج٤٢، ص٢٧٦.

إلى جانب الآية السابقة - في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾.[1]

من هنا يتّضح المراد من حديث النبيّ صلى الله عليه وآله، ومن النصيحة التي قدّمها صيانة لنا من الأمراض الجسديّة التي تسبّبها كثرة الأكل والتي تطول قائمتها: من أمراض القلب والسكري ومقاومة الإنسولين السابق لمرض السكري وزيادة الدهون الضارة في الجسم واعتلال الكلى والكبد وسوى ذلك ممّا يكاد لا يحصى، ومن الأمراض النفسيّة الناتجة عن الأمراض الجسديّة أو التي تسبّبها بعض الأطعمة بشكل مباشر.

جعلنا الله وإيّاكم من الصائمين الذين يذكرون بجوعهم وعطشهم جوع يوم القيامة وعطشه، ومن الممتثلين لأحكام الله حبّا وخشوعا له.

والحمدلله رب العالمين.

---

(١) الإسراء: ٢٧.

الصوم مدرسة الآخرة

يُحيط الصومُ في شهر رمضان المبارك الإنسانَ بهالة روحيّة عميقة، تُشكّل بالنسبة إليه ممرّا ضروريّا لصقل روحه على جميع الأصعدة: النفسيّة والاجتماعية والفكريّة وصولا إلى تثبيت العلاقة مع الله عزّ وجلّ، تُشبه إلى حدّ معيّن اندماج المرء في دورة تخصّصيّة كثيفة لإتقان المنحى الفكري لها سواء أكان علميّا أم فلسفيّا أم اجتماعيّا بغية الاضطلاع بالدور المناسب لها في المجتمع، فيتحتّم عليه بذل الوسع والجهد لإتقان كفاياتها التعلّميّة لتحقيق أهدافها والوصول إلى المهارات المطلوبة في هذا الاختصاص. كذلك يكون شهر رمضان المبارك بالنسبة للإنسان المؤمن الحريص على دينه.

ولذلك قدّم القرآن الكريم لنا دعوة إلى الاستعانة بكلّ ما يكون له مدخليّة في تطوير الإنسان روحيّا كقوله تعالى: ﴿يَا

أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ﴾[1] بناء على ما ورد عن المعصومين عليهم السلام في تفسير الصبر بالصوم، للعلاقة الوثيقة بينهما، لأنّ أبرز مصداق يتحقّق به الصبر - إنْ على المستوى الماديّ أو المعنوي - هو الصوم، وبذلك يستطيع الإنسان أن يجعل الصوم عونا له في تحقيق أعلى درجات الصبر المأمور بها، والتي تُشكّل معيارا وميزانا لتقييم الأشخاص في نظر المولى عزّ وجلّ. وقد سمّي الصوم بالصبر لأنّه من لوازمه. وإذا كان الإنسان فاقدا للصبر فإنّه لن يكون قادرا على امتثال هذه العبادة لأنّه لا يقدر على ترك نفسه دون طعام أو شراب في مساحة زمنية حدّدها لنا الشارع المقدّس، فضلا عن أمور أخرى تُبطل الصوم وإن كانت ليست من المأكل والمشرب كما هو معروف مما فصّلته الرسالة العمليّة.

ومن جملة حِكَمِ الصوم الكثيرة أنّ انقطاع الإنسان بإرادته عن الطعام والشراب يُظهر إمكانيّة انقطاعه عن كلّ معصية أخرى زجرنا الله تعالى عنها، بتقريبٍ مفاده أنّ أكثر الشهوات علقة بالإنسان هي شهوة المأكل والمشرب، لأنّها سبيل بقاء الإنسان وسبيل قوّته؛ وتأتي الشهوة الأخرى بالدرجة الثانية كما هو معروف عند أهل علم الأبدان.

---

(١) البقرة: ١٥٣.

وامتثال عبادة الصوم بكمالها إنّما تكون من الصائم الحقيقي وليس من الصائم السطحيّ، ومن هنا نفهم معنى قول الإمام الصادق عليه السلام: «ولا تجعل يوم صومك كيوم فطرك»[1] وإذا تساوى هذان اليومان المختلفان في النوع زاد الغبن عند الإنسان فضلا عن غبنه إذا تساوى يوماه المتّفقان نوعا انسجاما مع الرواية المشهورة عن الإمام الصادق عليه السلام: «من اعتدل يوماه فهو مغبون.»[2] فالامتناع عن المباحات في غير شهر رمضان في الشهر نفسه التي تحوّلت إلى محظورات كالأكل والشرب يجعل الإنسان قادرا على الامتناع عن المحرّمات أيضا في كلّ وقت من الأوقات خارج شهر رمضان.

إذن، يعطي شهر رمضان المبارك الإنسان قوّة روحيّة تجعله صلبا في مواجهة المحرّمات وتثبت له بالوجدان، وهو أقوى من البرهان، أنّه قادر بالفعل على ترك كلّ ما نهانا الله تعالى عنه.

وبمثالٍ بسيط عن التدخين الذي يدمن عليه الإنسان، ويوطّن نفسه على عدم القدرة على تركه، فإنّه يلاحظ وجدانا أيضا أنّه قادر بالفعل في نهار شهر رمضان المبارك على تركه،

---

(١) الكليني، الكافي، ج٤، ص٨٧.

(٢) الريشهري، ميزان الحكمة، ج٢، ص١١١٠.

بل تتجدّد عنده العزيمة، فالذي يستطيع أن يتركه في هذا الوقت من نهار شهر الصيام يستطيع أن يتركه في غيره، ولكنّه يحتاج إلى إرادة قويّة تصقلها مدرسة شهر رمضان، مدرسة التقوى والإرادة.

ومن قوّة الإرادة هذه، ننتقل إلى مسألة أخرى تتصدّر الواجهة عادة بين الناس وهي مسألة الغيبة التي يعبّر عنها البعض بأنّها فاكهة المجالس، وهي محرّمة بالنص القرآني المعروف: ﴿...وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾(١) تظهر الإرادة جليّة في شهر رمضان عند كثير من الناس في ردع المغتاب بحجّة أنّنا في الشهر الكريم، ما يعني أنّنا قادرون على تركها في غير هذا الشهر، وهذه من الثمرات المهمّة في تربية النفس يقدّمها لنا الصوم إلى جانب فوائده العظيمة المباركة، حيث نزداد إيمانا وإذعانا بقدرة الله عزّ وجل على حفظنا ومساعدتنا في تأمين أنفسنا من ارتكاب الحرام. ما ألطف وأكرم هذا الربّ سبحانه وتعالى! وبذلك نعلم كيف يربّي الصوم الإنسان، وما هذه الأوامر الإلهية لامتثاله إلا لأجل العبد ومصلحته وتأمينه من العقاب.

---

(١) الحجرات: ١٢.

هذا المسلك التربويّ والمنهج الرشيد يعمّق في أنفسنا فهم العبادة والدخول إلى لبّها بدل البقاء في القشور والممارسة السطحيّة، ولذلك يمكن للعبد الممتثل أن يصل في عبادته إلى أرقى أنواع التواصل مع الله عزّ وجل، سواء في الصلاة أو الصوم أو مطلق ما يتقرّب به الإنسان إلى ربّه. ومن هنا يشعر المرء أنّه يمارس روح العبادة، والروح أعمق من المادة، بل إنّ الغوص في الفهم الروحيّ يوصل الإنسان إلى درجات عليا في سلّم الكمال تُحقّق مرضاة الله وتوفيقاته للمؤمن الحقيقيّ الذي يرى الله تعالى في سلوكيّاته كافّة، وتُبعده عن الجفاف الروحيّ الذي يعاني منه أكثر الناس، حيث يجعلها هذا الجفاف عرضة للأمراض النفسيّة والوساوس القهرية.

إلى جانب ما نلاحظه من مآثر الصوم نجد من المناسب ذكر أهمّيّة الدعاء المنصوص في شهر رمضان المبارك، إنْ بالأدعية الخاصّة أو العامّة، فنلاحظ أنّ تأثرنا بالدعاء يزداد، وأملنا بالله عز وجلّ يقوى انسجاما مع قدسيّة الشهر المبارك، ما يعطينا حافزا مستمرّا للتمسّك بالدعاء والتواصل مع الباري عزّ وجلّ في غير شهر رمضان لكي نكمل تأثّرنا به، ونتجاوز لقلقة اللسان فيه.

هذا الفيض الإلهي الذي فتح شهر رمضان أبوابه لنا،

وقدّم فرصة ثمينة للوصول إلى علاقة متينة مع الله تعالى يُقرّب بسرعة مذهلة وصولنا إلى مرحلة التقوى التي مدح الله بها عباده الصالحين. فبالتقوى، وهي في أصلها الوقاية من غضب الله، يبتعد المؤمن المتّقي عن ارتكاب الذنوب، ويصبح الذنب بالنسبة إليه أمرا ممجوجا ومنبوذا، ليكون هذا العبد في دائرة الحفظ الإلهيّ، وما أحلاها من نعمة يحصل عليها الإنسان! وهذا يتحقق بلبّ العبادة وروحها وليس بالممارسة السطحيّة الخاوية والخالية من الخشوع والتأدّب في حضرة الله عزّ وجلّ.

فلنحذر أشدّ الحذر عند دخولنا في شهر رمضان لكي نخرج منه بقلوب سليمة ومنيبة لا أن نخرج وقد ازداد حمل ذنوبنا وآفاتنا الرديئة بسبب تصرّفاتنا الخاطئة وابتعادنا عن روح الشهر الكريم.

إنّ النظر إلى العبادات بشكل تجزيئيّ دون منهج روحيّ سليم، يؤثّر على ثمرتها لأن الله تعالى أراد للإنسان أن يعي الفوائد ويفهمها حتى لا تكون العبادة أمرا روتينيّا أو تتحوّل إلى عادة لا طائل تحتها. من هنا كان حثّنا الدائم في محاضراتنا انسجاما مع ما تعلّمناه من مدرسة أهل البيت عليهم السلام على فهم مقاصد العبادة ولو في بعض تفاصيلها، لأنّ الإلمام بجميع حِكَمِ

الله تعالى ليس من مقدور العبد، ولذلك نطرح أسئلة نتكفّل بتصديرها عناوين أبحاثنا، مثل: لماذا فرض الله الصوم؟ لماذا فرض الحج؟ لماذا فرض الزكاة؟ فنتكلم مثلا عن إرادة الله عزّ وجل في عروج الإنسان إلى التكامل والقرب المعنوي منه سبحانه وتعالى. لذلك فإنّ أيّ عمل يقوم به العبد خالصا لوجهه تعالى يكون في طريق الترقّي إلى الدرجات العالية من التقوى والورع، فإذا وصل الإنسان إلى هذه الدرجة العالية حظي بخير الدنيا والأخرة؛ شكّل أعلى درجاتها عليّ الأكبر سلام الله عليه، عندما قال لأبيه الإمام الحسين عليه السلام عندما سمعه يحمد الله تعالى ويسترجع: «ممّ حمدت الله واسترجعت؟» فقال عليه السلام: «يا بنيّ، إنّي خفقت خفقة، فعنّ لي فارس على فرس وهو يقول: القوم يسيرون والمنايا تسير إليهم. فعلمتُ أنّها أنفسنا نُعيت إلينا». فقال له: «يا أبتِ - لا أراك الله سوءا - ألسنا على الحقّ؟ قال عليه السلام: «بلى، والذي إليه مرجع العباد» قال عليّ الأكبر: «فإنّنا إذن، لا نبالي أن نموت محقّين» فقال له الحسين عليه السلام: «جزاك الله من ولد خير ما جزى ولدا عن والده».[١]

---

(١) الشيخ المفيد، الإرشاد، ج٢، ص٨٢.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١ - ابن منظور، لسان العرب

٢ - أصول الكافي، الشيخ محمد بن يعقوب الكليني

٣- إقبال الاعمال، ابن طاووس

٤ -الإمامة والمجتمع السيد كاظم الحائري

٥ -القواعد الفقهية، السيد المصطفوي

٦ - التفسير الصافي ، الفيض الكاشاني

٧- الاحتجاج ، الطبرسي

٨- الأمالي، الشيخ الصدوق

٩- الإرشاد، الشيخ المفيد

١٠- المحاسن ، أحمد بن محمد بن خالد البرقي

١١- الصلاة في الكتاب والسنة، الريشهري

١٢- المنطق، المظفّر، الشيخ محمّد رضا

١٣- أصول الفقه ، المظفّر، الشيخ محمّد رضا

١٤- بحار الأنوار، العلامة المجلسي

١٥- تهذيب الأحكام ، الطوسي

١٦-تفسير الأمثل آية الله المكارم الشيرازي

١٧-تأملات في سورة يوسف آية الله السيد كاظم الحائري

١٨- تاريخ الطبري ، محمد بن جرير الطبري

١٩- ثم اهتديت، التيجاني

٢٠- وسائل الشيعة ، الحرّ العاملي

٢١- وسائل الشيعة، كتاب القضاء ، الحر العاملي

٢٢- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد

٢٣- شرح أصول الكافي، المازندراني

٢٤- شرح كلمات أمير المؤمنين، عبدالوهاب

٢٥- جامع السعادات ، النراقي، محمد مهدي

٢٦-موسوعة الشهيد مطهري

٢٧- من لا يحضره الفقيه، الشيخ الصدوق

٢٨- مصطلحات الفقه ، المشكيني

٢٩- مستدرك الوسائل، الميرزا النوري

٣٠-حكمة العبادات آية الله جوادي آملي

٣١-علل الشرايع الشيخ الصدوق

٣٢-سيرة الائمة اية الله السبحاني

٣٣ -دروس في علم الأصول الشهيد الصدر

٣٤-ميزان الحكمة الشيخ الريشهري

٣٥- كامل الزيارات ، ابن قولويه

٣٦- الحكمة ، نهج البلاغة

٣٧ -شبكة المعارف الاسلامية

٣٨-المواقع الاكترونية

المحتويات

وعن محاضراته التي بين يدينا في هذا الكتيّب الأنيق، فإنّها جاءت بعد تصفّحي له بأسلوب السهل الممتنع، وامتازت برشاقة قلمه وحسن سبكه وجميل بيانه، تحيط بالمطلب وتقف عند أهمّ أفكاره، وتقدّم للقارئ مادّة غنيّة بنكات علميّة أو معلومات طبيّة أو تجارب اجتماعيّة، تغني المحاضرات وتحفّز الباحث الرصين على طرق أبواب المعرفة ضمن منهج المؤلّف.

دار حوراء الثقافية